

رواية

# لولا القدر

فرنشيسكا ريبي



## إهداء

إلى كلِّ النفوسِ الطَّيِّبَةِ.....  
إلى مَنْ سَقَطَ فَنَهَضَ فَنَجَحَ.....  
إلى مَنْ يَبْعَثُ الأَمَانَ حَيْثُ كَانَ.....  
إلى كلِّ مَنْ يُؤْمِنُ بِأَنَّ النِّجَاحَ مُنَالٌ.....  
إلى مَنْ سَعَى بِجَدٍّ لِتَحْقِيقِ المُرَادِ.....  
إلى القُلُوبِ الَّتِي تَنْبِضُ بِالأَحْلَامِ....  
إلى كلِّ لِسَانٍ يَدْعُو إلى السَّلَامِ..



فرنشيسكا ريكي Copyright © 2020  
All rights reserved.

## { مقدمة }

تلك الذكريات التي تعترينا لحظة اشتياق النفس  
لأنس ينتشلها من جدران الوحدة ، ما هي إلا صور  
تبقى ، في القلوب لترقى..... إذ كانت تنبض به  
بوجوده ، بعبقه ، بروحه المألوفة التي انسقت  
بمكاتب القدر تحت أوامر الله من لا يجعل في قرار  
إلا تسهيلاً وخيراً... لقاء تستصغره أو فراق لا تنتظره  
هو نفس المحطة التي سبقت كلاً منهما ما كنت  
تصلها لولا القدر !!!

في لقاء صحفي عرضه برنامج جزائري لاستضافة شخصيات بارزة :  
 - مرحباً بالسيد ادوارد و الأنسة بيانكا يوهان في برنامج أحداث و شخصيات. أتمنى أن تكون الإقامة هنا في الجزائر مريحة لكليهما و جميع المعجبين ينتظرون لقاء نجم كرة اليد البريطانية إدوارد يوهان.  
 - أهلاً و شكراً على الإستضافة الرائعة!.

تفوهت مقدمة البرنامج في حبور:  
 - لقد انتشرت مؤخراً رواية للكاتبة ماري فرديناند عن مقتطفات و محطات حياتكما الأسرية و أظهرت فيه عمق رابطتكما التي حدثت صدفة في ملعب للكرة... سنتطرق إلى فصل قصير من هذه الرواية معاً:

« خطت خطوتين ناعمتين باتجاه درج الخزانة الخاصة بوالدتها بحثاً عن دميتهما الشقراء، و بمحاولات خفيفة ترفع فيها ذراعاها نحوه ليفتح، ثم ما فتئت أن سقط أسفلاً فتناثرت ملابس، و تبعثرت رسائل كثيرة. شعرت بيانكا بالذعر و أسرعت توظب الأغراض من جديد حتى لمحت صورة لزوجين بئباب العرس، جلست القرفصاء ترمق الصورة باستغراب فالفتاة هي والدتها لكن الرجل غريب غريب عنها تماماً...»

دخلت جوليا على حين غفلة و شاهدت المنظر أمامها مندهشة:  
 - صغيرتي ماذا تفعلين؟

غمغمت الصغيرة بصعوبة:

- كنت.. كنت أبحث عن دمي... و سقط الدرج.. أنا.. آسفة أُمي.

تنهدت جوليا و خطت نحوها تلمّ قطع الملابس فوقعت عينها على الصورة بين أنامل بيانكا و انتشلتها من بينهم بسرعة، كانت الصغيرة خائفة من ردة فعل والدتها فهمست:  
- لقد كانت بين الرسائل ملقاة... أمي؟ من هذا الشخص؟.

رفعت جوليا نظرها نحو بيانكا غاضبة:  
- إنها صورة قديمة، لا تهتمي بهذا يا صغيرتي. لقد حضرت العشاء هيا معي...

انتبه مايكل لشروود جوليا المستمر و توترها الواضح من تشابك أناملها طول الوقت، كان يلعب ببيانكا التي ما إن مضت فترة حتى نسيت أمر الصورة بالفعل ثم انقضى المساء إلى ساعته الأخيرة.

- عزيزتي، هل حدث أمر أجهله؟.

التفتت إليه و هي تجلي الصحون:  
- ما سبب هذا السؤال؟.

- لقد كنت شاردة أثناء العشاء بصورة غريبة.. جوليا، ما الأمر؟.

أخذت نفساً عميقاً ثم أرسلت:  
- لقد رأيت صورة زفافي الأول يا مايك.. لم أدر ما علي قوله لها هل أقول زوجي الأول؟ لقد غضبت من ذلك الموقف و عجزني عن الشرح.. ماذا أفعل؟.

تنهد مايكل و قال:  
- سيأتي الوقت المناسب للشرح، لا تستعجلي.. بيانكا في السابعة الآن و لن يؤثر هذا على حياتنا... كوني مطمئنة سنشرح لها الأمر معاً حينها.

- شكراً مايك، أشعر أنني أفضل الآن.. كدت أنسى.. هل تلقيت رداً من شقيقك آدم؟.

ارتشف مايكل جرعة من القهوة ثم قال:  
- أجل، ستصل طائرته غداً... لا أصدق أن بيانكا ستفارقنا.  
- إنها مجرد أيام قليلة، سنلحق بها معاً، كل هذا بسبب تغير مواعيد  
مراسم الدخول في أكاديمية الفنون، و ردّ آدم المتأخر... لا بأس  
ستكون بأمان معه و سنجتمع مرة أخرى بعد أيام..

التحقت بيانكا رفقة عمها بأكاديمية للفنون في المكسيك و التي يدرس  
فيها صف الأطفال، تعرفت في يومها الأول على بقيتهن.. الكبرى  
بياتريس و الصغرى إنجي ابنة آدم في مثل عمر بيانكا و  
أخريات أيضاً.

- بيانكا، هل صحيح أن المعلم هو عمك؟..  
- اممم، إنه كذلك، و أنا أحبه كثيراً.  
نطقت بياتريس: هل والداك سيحضران غداً؟.

أطرقت بيانكا في جذل:  
- نعم، أنا مشتاقة إليهما.. سيأتيان بالطائرة، لكن.. لن أذهب مع عمي  
لاستقبالهما..

- فعلاً، فغدا لدينا درس تطبيقي في الرسم و لا يسمح لك بتقويته.. لا  
تقلقي سترينهما عاجلاً أم آجلاً.

مضت الساعات و تراقصت الثواني تسابق الدقائق، كانت بيانكا تكتشف كتاباً للرسم و تطالع لوحاته المزركشة، فالمنزل كبير عليها و على عمها و لا يوجد ما يثير حماسها سوى بعض أفلام الكرتون..

كانت في اليوم الموالي أثناء الدوام تخطط بأقلامها في الفراغ، تحاول تجسيد والديها على الورقة بمثابة.. و هي تتخيل ردة فعلهما عندما تقدمهما لهما فنتال المديح كما اعتادت دائماً...

ساعة، اثنتان، ثلاث.. لا أثر لعمها و لا لوالديها في الأرجاء و هي تطالع رفيقاتها يذهبن واحدة تتبعها الأخرى.

ظلت ترفل فستانها منتظرة في باحة المدرسة دون جدوى، فإذا بطيف آدم يتجلى أمام عينيها في مشهد مخيف.. كانت ملامحه المتجهمة و تفاصيله المتصلبة غير مفهومة لديها:  
- عمي!!!!.. لقد تأخرت كثيراً، أين أمي و أبي؟. هل هما في السيارة؟.

لمحت على وجنتيه خيط الدموع فجأة فصاحت بغصة:  
- آدم؟، أنت تبكي؟.. هل تأخرت عليهما فضربك أبي؟.

تقدم إليها و اعتصرها بين أحضانه يجهش في جمل منها السبب من ذلك ثم ربتت على ظهره بأناملها الصغيرة فهمس بفتور مجبراً:  
- بيانكا، صغیرتي، اسمعيني جيداً.. لن يأتي والديك أبداً..  
- ماذا تقصد؟.

رفع وجهها إليه حائراً ثم أردف:  
- إنه... ما في الجنة.

أطرقت بعينها بغباء قائلة:

- هل ذهباً لزيارة جدي ثم يعودان؟.  
- أجل، لكن... لن يعودا لقد ماتا... في حادث.

انتفضت بيانكا غاضبة:

- أوف لست في مزاج لأسمع مزاحك المعتاد، خذني إلى أُمي في الحال لقد سئمت الانتظار منذ الصباح.

اعتصر عيناه يائساً و هي تراقب ملامحه التي لا يظهر عليها المزاح فأخذت تلکم رأسه و تجذب قميصه تنكر ما سمعته قبل لحظة ثم دخلت في نوبة من البكاء دون أن تنبس ببنت شفة..

و اليوم قد مضى على ذلك عام كامل عادت فيه رفقة عمها إلى إنجلترا و التحقت زميلاتها بمنزله ليتابعن دراستهن فيها. بيانكا صارت في الثامنة، تمضي معظم وقتها مع آدم ترافقه في خرجاته و تتبعهما إنجي تارة خفية..

و في يوم من أيامها المعتادة انطلقت معه لمشاهدة مباراة كرة اليد التي يعشقها في الفترات الأخيرة..  
- بيانكا، اطلبي العصير من ذلك الكشك بسرعة..  
- لكن، آاه حسناً.. سأذهب.

انتفضت من على المقعد و تخطت الطابور للطلب و أعين الناس تحرق بها من الخلف، كانت أقصر من أن تراها البائعة..  
تنهدت مستسلمة حتى رفع طلبها شاب أمامها و قدم الكأسين لها دون أن يأخذ السنتات منها:

- خذي أيتها الصغيرة، إنها على حسابي..  
مدّت يديها تحملهما و نظرت إليه مطولاً و قالت مستغربة:  
- أنت متأكد، لدي المال، انظر..  
- لا بأس، هيا اذهبي و استمتعي بالمباراة !!.

خطت مسرعة تتمتم بشكراً نحو آدم، ظلت تفكر فيه و هي ترتشف من العصير تقدم السنتات إلى عمها الذي قال حائراً:



- بماذا اشتريت العصير؟
- لقد دفع ثمنه رجل كان في الطابور و أبي أن يأخذ ثمنه.
- صاح بوجهها موبخاً:
- لا تقبلي شيئاً من الغرباء في المرة المقبلة أيتها الحمقاء..
- حب.. سي.. نأ..
- لقاء عادي، يحدث صدفة ما هو إلا خطوة البداية للمستقبل..»

- أطرقت مقدمة البرنامج:
- تلك كانت بضعة من المحطات التي وردت في رواية الكاتبة ماري، أليس كذلك يا آنسة بيانكا؟ .

- أجل! لقد طلبت منها أن تذكر ذاك اللقاء.. كانت لحظة لا تنسى أبداً
- فإدوارد و بعد كل شيء يبقى الشخص الذي تعلقت به منذ صغري و
- بالمناسبة أقدم تحياتي لها و لجميع رفيقاتي اللواتي وقفن إلى جانبي دائماً.

- طيب!.. ماذا عنك يا سيد إدوارد؟.
- في الحقيقة ما حدث لي و لصغيرتي أقصد بيانكا هه! .

- همست بيانكا محرجة:
- لا زلت أهوجا يا ادوارد!.

- صدقيني لم أقصد ... قلت لهو شيء مؤثر جداً لقد مضى على ذلك
- الوقت اثنتا عشرة سنة.. إنه وقت طويل لكنه مر بسرعة.

- حسناً.. نترككم الآن مع رواية السيد إدوارد والآنسة بيانكا! .....

\*\*\*\*\*

\*\*\*\*\*

\*\*\*\*\*

\*\*\*\*\*

- بيانكا أسرعى سنتأخر عن المدرسة!  
- حسناً أنا قاءا اأدمة! يا إلهي. ألا تستطيعين الانتظار قليلاً يا إنجي!

بدأت بيانكا تعتاد على الحياة في مدينة لندن بعد مرور سنة كاملة على وفاة والديها. صحيح أنها كانت تعيش رفقتها في نعيم وترف لكن المعيشة تحلو بوجود نفس يطمئن لها القلب و الخاطر. المهم أنها ستحقق حلمها في أن تغدو رسامة محترفة مهما كلف الأمر، هذا ما قرّره بيانكا.

- أين أنت هيا بنا .... آه و لا تنسي الخريطة فوق المكتب هل فهمتي؟.

ذهبت إلى المدرسة برفقة إنجي التي في مثل عمرها و زميلتها في الصف، الطريق التي كانتا تسلكانها مختصرة لكنها ليست سهلة أبداً، الدوام لا يختلف عن هذا فقد كانتا تمضيانه بالضحك و اللامبالاة.. و في بعض الأحيان تطردان من الصف.

أثناء عودتهما إلى المنزل صاحت إنجي :  
- " آه!! نسيت أن أردّ على والدتي. لقد اتصلت بي اليوم. عذراً يا بيانكا عودي وحدك هذه المرة...".  
- إنجي! هاه، حسناً لا تتأخري.

في الحقيقة استغلت بيانكا هذه الفرصة في التجوال، لكن عندما كانت تسير لمحت شابان أحدهما يتدحرج الكرة بأنامله الخشنة، كانت تشبه الكرة من المباراة التي حضرتهما سابقاً، لم تلبث حتى تعقبتهما، بدا المكان الذي توقفا فيه مهجوراً؛ المدرسة مشوّهة جداً.

تسللت إلى الداخل، كانت خائفةً و لا تستطيع الحراك إلى أن شعرت بكفّ تلمسها فصرخت دون الالتفاف إلى الوراء وليس ببالها سوى الهرب، وصلت إلى ساحة كبيرة كان بها الشبان اللذان رأتهما، الظاهر أنهما يتدربان، كان هناك آخرون يقومون بحركات لم تفهمها فخاطبت نفسها قائلةً: " من هؤلاء يا ترى؟ " .

دنا منها شاب و قد بدا في العشرين أو أقل .. و أردف قائلاً:  
- آوووه أأست صاحبة العصير الصغيرة؟ .

إنه هو.. نفس الشاب الذي قابلته من قبل. أجابته وقد سيطر عليها التوتر: " أنا؟؟!! هذا ليس من شأنك...".

لم يرد عليها بكلمة بل ظلّ بإبتسامة المشرقة، كان وجهه يشعّ تحت خيوط الشمس؛ و خصلات الشعر التي تنسدل على عينيه بدت لها كألجنة لهب مشتعلة.

انتبهوا لهما الفتية، رأتهما متجهين نحوهما، فلم تستطع إخفاء قلقها و خوفها منهم إلى أن همس لها ذو الشعر الأحمر:  
- لا تقلقي سأعرّفك بنفسي..... أنا كابتن هؤلاء الفتية ؛يمكنك مناداتي إدوارد.. و أعلن عن ضحكة فاتنة.

- إدوارد؟ كابتن؟ هل حقاً ما تقول ؟ !!

أجاب بثقة تامة:

أجل!.. و هؤلاء: أنجلو و هو شخص يحب المزاح كثيراً، ألبرت شخص طيب و مرح، بتوهان عصبي المزاج لكنه شخص رائع، أما كارلوس فهو بارد الأعصاب و منعزل عن الآخرين، يوجين صديق الأطفال ستجدينه في الخدمة دائماً، وأخيراً جاك شخص مسؤول و يحب الحيوانات كثيراً." - تشرّفنا.....

عدّلت بيانكا وقفقتها و شدت ثوبها في خجل قائلة:  
- و أنا أدعى بيانكا.. سررت بلقائكم. سيد إدوارد أسفة لتصرفي الفضّ معك.. و الآن عليّ الذهاب.

ظل إدوارد يرمقها بنظرات الاستغراب ثم أردف :  
آوه،حسناً.. إلى اللقاء...زورينا مرة ثانية... إنها طفلة غريبة حقاً. لم أرى مثلاً في حياتي.

كان هذا لقاءها الأول بالكابتن إدوارد؛ كابتن فريق كرة اليد، ربما ستلتقي به قريباً ، فالأحداث القادمة ستغيّر مجرى حياة بيانكا الطفلة الصغيرة.

\*\*\*\*\*

- لقد عدت.. رائحة الطعام شهية.. أنا جائعة جداً ههه...  
صرخت إنجي غاضبة :  
- لماذا تأخرت يا بيانكا؟ كنا بانتظارك ..  
- أسفة يا إنجي كنت أتجول في المدينة، بالمناسبة أين هو عمي؟؟.

حملت بياتريس بعض الصحون و قالت متنهدة:  
- سيسهر مع بعض رفاقه، إنه غير مبالٍ أبداً !!!.

بعد العشاء صعدت بيانكا إلى غرفتها و جلست على السرير، لم تستطع نسيان ما حصل فصورة إدوارد تتجسّد ببالها، لا تدري لم تشعر أنها تعرفه منذ مدّة... فقامت بفتح درج مكتبها و أخرجت ألبوم صورها، عند أول صفحة قابلتها صورة والديها و بطريقة لا تصدّق أمدتها بالقوة.

\*\*\*\*\*

\*\*\*

\*\*\*\*\*

\*\*\*\*\*

\*\*\*\*\*

ذهبت بيانكا اليوم كالعادة إلى المدرسة، كانت تظنه كباقي الأيام الماضية إلى أن أخبرتهم المعلمة:  
- يا أطفال إنتقلت إلينا تلميذة جديدة إسمها إيزابيل ترين رحبوا بها و عاملوها بلطف.. حسنا!!؟

"" أهلا بكِ بيننا !!!!! هل أنت من مدينة بعيدة؟.. من أين أتيت؟.....""

- إهدؤوا يا أطفال !!!!!..... لنرى، إجلسي بجانب بيانكا.  
بيانكا كانت شاردة الذهن وعندما سمعت كلام المعلمة صاحت:  
- ماذاااا؟ بجانبني أنا.. يا إلهي..

عندما جلست كانت تبدو فتاة رائعة هكذا شعرت بيانكا.. شعرها بني قصير و عيناها زرقاوتان تميلان للخضرة . قامت بيانكا بسؤالها فوراً:  
- ما اسمك؟ أنا بيانكا سننتشارك الطاولة، أرجو أن..... قاطعت كلامها بتعجرف:

- لا يهمني هذا.. أنت فتاة ساذجة.  
تفاجأت ببيانكا من ردّة فعلها تلك ويبدو أنها ستراجع عن كلمة  
"رائعة" فهي ليست سوى فتاة مغرورة.

بعد الدوام تركت إنجي تعود إلى المنزل وحدها و بالتأكيد ذهبت  
حيث إدوارد و قد تكرر ذلك كثيراً حتى صارا قرييين.

من حسن حظها أنها تذكرت الطريق و كالعادة كان بعض الجانحين  
مصطفين على الرصيف، أعينهم كانت عليها، وأجسادهم الضخمة  
حجبت عنها ضوء الشمس حتى أنها خالتهم سيلتهمونها، لا تكرر  
بيانكا خوفها منهم ما جعل أحدهم يلاحظ إرتجاف ساقها مُردّفاً :

- يا صغيرتي لا تخافي لن نفعل لك شيئاً مؤذياً... ما رأيك أن نمرح  
معاً، لن تندمي هيا.. هههه..

شعرت ببيانكا بالاشمئزاز من كلامه وفي نفس الوقت أفرعها كثيراً،  
تمنّت الهرب بسرعة أو حتى الصراخ، حينها سمعت صوت  
إدوارد، لقد أنقذها .. صوته أعاد إليها روحها، صرخ بسخط:

- ما الذي تفعلونه هنا؟؟ فلتبتعدوا عنها حالاً... هيا !!!..

كان واثقا من كلامه بالتأكيد. وما إن أتاحت لها فرصة للهرب حتى  
أسرعت إلى إدورد الصديق الجديد و عيناها تذرفان الدموع لم  
تتمكّن من تفسير شعورها آنذاك غير أن بالها كان منحصرا في تلك  
اللحظات فقط.

قام إدورد بتهديتها وضّمّها بقوة إلى صدره كانت رائحته تشبه  
إلى حدّ ما رائحة والدها ما تركها متمسكة به لدقائق عدّة. لم تنطق  
بكلمة إلى أن سألتها ماسحاً الدموع من على خدها:

- هل أنت بخير يا بيانكا؟ هل تأذيت؟ ... أجيبيني بصراحة.  
- ابتسمت في وجهه قائلة:  
- بفضلك أنا بخير... أنت تبدو كأَيرون مان !!.. نسبت ذلك لشعره  
الأحمر الفريد...

احمر وجه إدوارد من فرط الضحك حتى خالته حبة طماطم. ثم  
سألته بإلحاح شديد:  
- هل يمكنني البقاء بصحبكم يا سيد إدوارد؟ أرجوك!!!..

أشاح بوجهه عنها للحظة ووجه نظره ثاقبة لأولئك الجانحين الذين  
هربوا الواحد تلو الآخر كيف لا وقد كان يلقب بالـ "الذئب الأحمر"  
أيام الثانوية هذا ما غمغم به أحد الحثالة ربما سيتغير إلى أيرون مان  
منذ اليوم، ثم أعاد النظر إليها و سألها بابتسامة متزنة: - ألن تقلق  
عليك والدتك؟.

زمت شفتيها تحفظ بعينيها، ثم أجابت بعد لحظة صمت :  
- لقد مات والداي في حادث.  
- آسف جدا .. ومع من تعيشين؟.  
أردفت بحماس شديد : " مع عمي و طالباته، إنه يدرسه الرسم،  
نحن نعيش معاً في منزله، عمي شخص لطيف، أتمنى أن تقابله  
يوماً..."  
- رسم؟.  
لم يدرك إدوارد ما في جعبة بيانكا من خفايا. ردت :  
- أجل أنا أتعلم الرسم منذ سنتين في مدرسة ريفانارت.... ألم أخبرك  
بهذا؟.

فتعلو إدوارد نظرات استغراب و ذهول ثم يجيب : لا، أبدا!! لقد  
سمعت عنها الكثير لكن! أظنك موهوبة لتكوني في مدرسة مشهورة  
كتلك هههه... حسنا، يمكنك مرافقتي يا بيانكا.

رافقته بخطاً صغيرة و شاهدت تدريبيهم، كان نوعاً ما قاسياً لكنه أعجبها ، أحسّت بسعادة غامرة من معاملتهم لها كفرد منهم.

عند عودتها رافقها إدوارد إلى المنزل، كان الجو لطيفاً، اختلست النظر إليه...بدا عالياً جداً بالنسبة لها. عندما رأت وجهه تذكرت صورة والدها، قامت بإمساك يده الكبيرة... فنظر إليها بسرور قائلاً :

- تشعرين بالتعب يا بيانكا؟.

لم تستطع أن تقول شيئاً غير أنها إقتربت منه قليلاً.. فجأةً، توقف ثم التفت إليها، نظراته كانت دفناً و أماناً، دنا منها جلس لتسند نفسها على ظهره، فحملها قائلاً:

- هذا بديهي يا صغيرتي ؟.

باتت بيانكا تخفي وجهها بين شعره إلى أن أردفت :

- أظنني سأنام.

سألته بصوت خافت:

- هل أستطيع أن أغفو حتى نصل يا سيد إدوارد؟.

قال ضاحكاً:

- أكيد، يمكنك ذلك. شيء آخر.. ناديني إدوارد فقط ولا داعي للرسميات، نحن صديقان.. اتفقنا؟.

- حسناً يا سيدي.... أقصد يا إدوارد.. شكراً لك.

نامت ولم تدر ما حدث بعدها، فقام بإيصالها إلى المنزل بعدما امتدته بخريطة ملخبطة وجد صعوبة في فهمها، همس:



- طفلة تنتقل بهذه الخريطة..... غريب أمرك يا صغيرتي !!.

في الصباح سألنها رفيقاتها عمّن يكون لكنها أنكرت معرفتها به  
مفسّرة ذلك بقولها:

« أضعط الطريق وهو قام بمساعدتي » وهي على يقين أنهم  
سيغضبون لو علموا أنها كذبت عليهن.

\*\*\*\*\*

\*\*\*\*\*

\*\*\*\*\*

\*\*\*\*\*

الأربعاء، الثاني عشر من كانون الثاني.  
خرجت بيانكا رفقة إنجي وبياتريس إلى العاصمة للتسوّق،  
بياتريس كانت تكبرها بأربع سنوات. تعجّبتني شخصيتها الجادة، و  
بيانكا تعتبرها كأختها الكبرى تماماً، هي دائماً تحميها و تعلمها  
أشياء تجهلها وللأسف توفي والدها العام الماضي و قد أنت إلى  
المدينة حتى تعين والدتها التي في قرية بعيدة.

- بيانكا. هذا ليس وقت الشرود إيّاكي أن تبتعدي عني.  
- أسفة بياتريس .... هياي إنجي هل تحبين التسوق من أجل بطنك؟  
- ربما... أعلم أن بياتريس ستشتري لنا الحلوى. إنها كريمة جداً  
ليست كأوديت.. لهذا أفضل التسوّق معها.

إنجي لن تتغير أبداً، هي فتاة شرهة لكنها أيضاً طيبة القلب.

دخلن إلى البقالة ثم إلى المتجر حيث الحلوى و إختتمن تسوّقن بمحل الثياب. لم تشأ بيانكا الدخول و انتظرت مع إنجي في الخارج، بالطبع كان الجوّ باردا فجأة سألتها إنجي :  
 - لنتجوّل قليلا يا بيانكا... مللت الانتظار.. هيااااا.  
 توترت بيانكا ثم أردفت: لكن ألم تطلب منّا بياتريس أن لا نذهب إلى أيّ مكان؟  
 - لن نتأخر... هيا بنا يا بيانكا أسرعي .

قامت إنجي بجرّها معها، كانت العاصمة مزدحمة بالناس و المباني الشامخة تصارع الشمس التي إحتجبت خلف الضباب، سألت إنجي و هي خائفة :  
 - أليس علينا العودة، الجو بارد ستمطر....

لكنها طمأنتها بحجة أنهما لم تبتعدا كثيرا. الناس كانوا يصطدمون بهما و علامات التعجب على محياهم « طفلتان صغيرتان لوحدهما في مثل هذا اليوم!! أين والدتهما؟! !!....ربما أضاعتا الطريق».

عندما سمعت همسهم، مسكت بيانكا يد إنجي و أسرعت للهرب. خشيت ان تسمع ما يشوّه صورة أمها لم تكن على دراية بالطريق التي تتوجه إليها. إلا أنها على علم بضياعهما. لن تستطيع العودة إلى بياتريس.  
 بدأت السماء تمطر، كان الطقس رطبًا، ما زاد خوفها و قلقها كلام إنجي. فقد قالت لها :  
 - بيانكا لقد ضعنّا.... لا أرى البقالة و لا حتى متجر الحلوى. أين نحن؟  
 - لا أدري، أنا خائفة جدًا..

كان وضعهما سيئاً، لم تستطعا فعل شيء. وجدتا بعد سير طويل مكاناً إختبأتا فيه من المطر. صوت الرعد دوى في المكان حتى خالتاه يوبّخهما، انفجرت أنجي بالبكاء بعدها، ثم قامت ببيانكا بشدّ يديها. و أخبرتها أن لا تقلق أبداً، سألت نفسها كيف أقول هذا و أنا لست واثقة من مكاننا؟.

بعد مدّة سمعتا أصوات رجال بالقرب منهما. فقفزت أنجي وصاحت:

- لنطلب منهم مساعدتنا يا بيانكا!!!...

لم تكن واثقة لكن بعد أن إختلستا النظر إليهم، كانوا ثلاثة رجال، و لوهلة قصيرة إتّضح أنهم مجرد حثالة، سمعت أحدهم يهدّد شخصا بدا يائساً، لقد أراد منه المال. هو يعرف أنه إذا رفض سيلقى حتفه، لكنه فعل، كان شجاعاً إلى أن دفع ثمن شجاعته. لم تستطع بيانكا مشاهدة ذلك، حدّرتها أنجي من المخاطرة، قالت لها:

- إياك و الذهاب إليهم... ستعرّضين حياتنا للخطر يا بيانكا لنغادر!. استوقفتها هنا و أجابتها بحماسة شديدة :

- لا يجب علينا تركه لوحده سيموت، أنجي أحضري شخصا ما إلى هنا بسرعة هيا!!! إذهبي!!!!...

لقد تردّدت وقتها لكن إستسلمت و ذهبت، عندما رأتها بيانكا تبتعد. خافت وضمت ساعديها إلى رأسها.

أعادت النظر إلى الرجال. كان ذلك الشخص يستغيث و ينادي :  
« أرجوكم فليساعدني أحدكم.....!!! »

ارتبكت الصغيرة من مناجاته غير أنّ قدميها ساقاها إليه حتى وجدت نفسها أمامهم. سألتها حثالة منهم:

- ماذا تفعلين هنا أيتها الصغيرة؟ هيا ارحلي و إلا تأذيت....

- لن أرحل حتى تدعه و شأنه.. هل فهمت؟

لا تدري بيانكا كيف نطقت بتلك الكلمات سوى أنها على يقين من غضبه و هيجانه. أعاد طلبه برحيلها و لكنها عنيدة. رفضت و بقيت هناك. ما أفزعها أنه أخرج سكيناً من جيبه كان ينوي بها شراً .. ناجاها ذلك الشخص بالرحيل كون هؤلاء لا يرحمون أحداً و لو كانت طفلة صغيرة، اقتربوا منها كثيراً و وجَّهوا السكين في وجهها، أخبرت نفسها: « لقد إنتهيت يا بيانكا.. » حتى إنجي تأخرت كثيراً. ندمت لأنها عصيت أوامر بياتريس. قادها فضولها إلى هذا.

أما إنجي فلم تعثر على طريق العودة، المطر الغزير حجب عنها الرؤية حتى اصطدمت بشخص و سقطت فناداها بنبرة قلقية: هل أنت بخير؟ وعندما رفعت رأسها صاحت: - هااه! ألسنت أنت من....؟.

أمسك الرجل بعنق بيانكا، لقد شعرت بالإختناق كانت ستفقد وعيها حتى لمحت إنجي مع أحدهم. كان ذلك ادوارد ، و لم تدر ما حصل بعدها.

إستيقظت ووجدته يمسح على جبينها، يده التي تلف قبضتها الممسكة بقطعة الحلوى التي اشترتها لها بياتريس كانت دافئة رغم البرد. سألها ما إن كانت بخير فأشارت بنعم، ثم قام بمعانقتها وهي بدورها إستسلمت للبكاء. إنجي كانت تتابع بصمت ولكن صمتها لم يدم طويلاً... حتى سألت مستغربة:

- ما هي علاقتك به يا بيانكا؟ انت لن تخفي عني شيئاً صحيح؟!!!!  
لم تردّ بيانكا عليها لكن ادوارد فعل. قال لها : أنا صديق والدها.. هذا كل شيء..

بالطبع قام بالمراوغة فهو لم يقم بذلك بتاتاً ، و اقتنعت إنجي بكلامه

صاحت بيانكا في فزع:  
- أين هو ذلك الرجل؟ ... لقد كان هنا؟؟..

قالت إنجي:  
- لقد هرب أولئك الرجال عندما اجتمع الناس هنا.. نسيت أن أخبرك أن ذلك الرجل طلب منا شكرك على شجاعتك يا بيانكا..  
- حقاً! ... حمداً لله...

رافقهما إدوارد و أوصلهما إلى محل الثياب حيث بياتريس. كانت تنتظرهما بشوق وما أن لمحتهما عيناها ، أسرعت إليهما و ضمّتهما حتى كادتَا تختنقان. كان إدوارد يبتسم في وجه بيانكا.  
طلبت منهما بياتريس أن تغادرا معها بعدما شكرت إدوارد على مساعدته لهما لكن بيانكا أثبت ذلك و رجتها أن تدعها معه بحجة أنه وعداها بإصطحابها إلى مكان جميل .  
لم تمنع بياتريس أبداً لكن أحسّت بيانكا من ملامحها قلقاً زائداً و شكاً في كلامها. إنجي تمنّت لها وقتاً طيباً ، أما إدوارد فقد سألها بإبتسامة عريضة:

- أنت أذكى بكثير ... لكن لم يكن عليك اللجوء إلى الكذب حتى ترافقيني.. ماذا تطلين؟ دمية؟ أم حلوى لذيذة؟.  
- أنت تعرف ما أريد. مسكت بمعصمه ثم أردفت:  
- أرغب بمرافقتك إلى الملعب...

كانت تريد بيانكا الصغيرة البقاء معه لوقت أطول، ظلّاً يسيران بمحاذاة الشاطئ، كانت الشمس تودّعهما، ليس المهم أن نعيش لسنين طوال، بل المهم أن نعيش مع شخص يقدر كل لحظة تمرّ من حياتنا. الشمس قد تختفي لكن نورها يبقى يشعّ وتعاود الظهور لتنشر دفاها في يوم جديد.

هكذا كان ادوارد، ابتسامته أشرقت حياة بيانكا، عيناه الزرقاوتان تلمعان دائماً فبريقهما لم ينطفئ أبداً كما أضفت بدلتها الرسمية السوداء أناقة وكأنه في حفلة راقصة .  
سارا و الزمن يحفظ كل لحظة تمضي عليهما، شردت وهي تنتظر إليه حتى رمقها بابتسامة لم تجد لها مثيل. أرادت مصارحته: « لماذا تبتسم دائماً ؟....» لكنها لم تستطع. هكذا مرّ يوم آخر مع ادوارد.

في المنزل، قدم آدم ملفاً يخص جوليا كان بين أغراض السفر. لمحت بيانكا تلك الصورة من جديد و هي تتذكر نظرات والدتها الشاحبة آنذاك:  
- عمي، هل تعلم من هذا الرجل في الصورة؟.

أحاطها بعيون مستغربة قائلاً:  
- لم تحدثك عنه من قبل؟، إنه زوج والدتك الأول تطلقاً ثم تزوجت أخي مايكل..  
- أبي؟، إذن هذا كان ...؟

صعدت إلى غرفتها لا تفارق عينيها الصورة، كانت تود مقابلة ذلك الرجل من دافع الفضول فكان تفكيرها منحصراً حول زيارة منزل والديها.

\*\*\*\*\*  
\*\*\*\*\*  
\*\*\*\*\*  
\*\*\*\*\*  
\*\*\*\*\*

يبدأ نهار جديد و مغامرة جديدة أمام بيانكا. لقد استيقظت باكراً ، و ذهبت إلى منزلها القديم، منزلها الأسريّ. عند دخولها من الباب الرئيسي للمنزل الذي زاده عظمة و كأنه ريتاج قلعة سندريلا، كان الغبار يتطاير على كل خطوة تخطوها، والأرائك صار غطاؤها رماديا يشهد على طول الفترة التي مرّت على هذا البيت بعد مغادرة أهله.

صعدت بيانكا إلى غرفتها و هي تمسح الغبار عن مقبض السلالم، كان المكان منيراً، نافذة الغرفة كانت مفتوحة و الستائر تنادي ببيانكا :

« هيااا تعالي.. إشتقنا إليك.. لماذا غادرت؟ »

كل شيء تركته كان موجوداً ،لم يتغيّر شيء. ثم إنتقلت إلى غرفة والديها. الجوّ هناك هادئ ، كان أمام السرير صندوقاً، وجدت فيه الطفلة صورة لعائلتها، بدا ثلاثتهم سعداء. لكنّ المفاجأة كانت في هذه الصورة بالتحديد، السرّ كان بداخلها طول هذه الفترة. عندما نزعت إطارها، هناك كانت رسالة لبيانكا.. لقد كتب فيها :

« صغیرتي بيانكا.... كيف حالك الآن؟ عندما تقرّأين هذه الرسالة سيكون الألوان قد فات، عزيزتي.. لا تغضبي مني لأنني أرسلتك بعيداً عني كنت مضطّرة.. صحيح أنك أردت معرفة الحقيقة. لكن أعذريني كان صعباً عليّ إخبارك. تزوجت برجل يدعى ألكسندر ، و حظيت بولد جميل ، كان رائعا... لكن الأمور تغيّرت، و لقد ضاقت بي الأحوال مع ألكسندر فإنفصلت عنه وتركت الطفل معه. لا أنكر أنه كان صعباً عليّ تركه. لكن بعدما تعرّفت على مايكل و أتيت إلى حياتي نسيت كل شيء إلى أن ذكرتني بذلك. آسفة بيانكا. أنا أحبك كثيراً يا حلوتي، إعتني بنفسك. »

تساءلت بيانكا : كيف؟ أنا لا أفهم؟ آه.. هل لدي أخ حقاً؟ لم تذكر في الرسالة إسمه حتى؟. كيف سأجده الآن؟ ألكسندر؟ هل هذا إسم الرجل؟. إرتبكت بيانكا ولم تعرف ما ستفعله لاحقاً، هل تبحث عن رجل يدعى ألكسندر؟ أم ماذا؟ أسئلة كثيرة حيرتها.

غادرت بعدها مباشرة ،و بقيت تسير في الزقاق ضائقة الصدر، مهمومة. حتى خطرت ببالها فكرة: لماذا لا أسأل جدتي؟ ربما تعرف شيئاً؟ . طبعاً فأدم كان يجهل تفاصيل الأمر لأنه لم يخصه بشيء فلجأت إلى جدتها التي في القرية.

عادت إلى المنزل و حزمت أمتعتها... كانت قد شرحت الأمر لبياتريس فوافقت على مرافقتها. كانت الحماسة في عينيها... لم تتردد لحظة واحدة، لم تجد الوقت الكافي حتى لتودّع عمها أو إدوارد.

إستقلت القطار نحو قرية سكوتلاند. و وجود بياتريس أراح بيانكا كثيراً، لقد إستمتعت حقاً بهذه الرحلة، وعلى مرأى من ناظريها ظلّ الجبل الأحمر و قد سمّته بيانكا هكذا لإحمراره بلون الشمس عند الغروب،و إبان هذه الصورة الخلابة، تتطاير وريقات أشجار الصنوبر لتهدى بيانكا تحية الطبيعة .

وصلت إلى المحطة، و على جوانب الطريق إصطفّت أشجار التفاح و الليمون، حتى تهافت الناس لرؤية بيانكا:  
- أهلا بك يا صغيرتي... اشتقنا إليك كثيراً... كيف هي أحوالك؟!...



رسمت هذه الكلمات ابتسامة مشرقة على محيّاها ثم توجهت إلى منزل الجدة. بدا كمنازل الكرتون، الجدران من الخشب اللامع، و حديقة لطيفة تلف محيط الدّار، لم تلبث حتى لمحت جدّتها تحمل سلّة التوت الأحمر والأسود. إستقبلتها بحرارة، وقدمت لها حلوى إسفنجية لها رائحة الماضي البعيد الذي إختفى من ذاكرة بيانكا منذ أمد قريب.

لم تطل الحديث بل أفصحت عن سبب زيارتها، السبب فاجأ الجدة... لكنها على دراية بأن هذا اليوم كان سيأتي عاجلاً أو آجلاً، لم تراوغ بل أخبرت بيانكا ما تذكره.... في الحقيقة وجدت بيانكا راحتها مع الجدة لأنها كانت صادقة مع نفسها و مع الآخرين. كانت الدهشة واضحة على ملامحها، غير أن أكثر شيء راودها وقتها هو البحث عن عائلة شقيقها.. عائلة ألكسندر .

و عند مغادرتها للمنزل قدّمت لها الجدة بعضاً من حبات الخوخ و فطيرة التفاح التي اشتهرت بها في تلك القرية.. همست بياتريس: - هل تشعرين بالراحة الآن يا بيانكا؟.

- أجل، أنا سعيدة لأنني سأحظى بأخ أكبر....تعلمين؟ لقد كان حلمي !!.

أثناء وصولها إلى المحطة، لمحت إنجي و نوريكو و حتى أوديت ينتظرنها هناك، ارتبكت كثيراً... كيف ستفسّر هذه الرحلة المفاجئة التي قامت بها دون علمهنّ؟ لكن سرعان ما أخبرتھنّ بياتريس فهي تدرك أنهن سيتفهّمن الموقف.

في المنزل، أفصحت بيانكا عن كلّ شيء، لكن أليس لامتها مردفة:

- بيانكا، كان عليك إستشارتنا أولاً.. ألم نتفق على مشاركتنا لأسرارنا؟ لا تترددي في طلب المساعدة منا فنحن صديقات. أنت صغيرة جداً على اتخاذ القرارات. ماذا لو كنت مخطئة حتى المعلم تفاجأ؟  
- آسفة أليس. أعدك بأنني لن أخفي عنكن شيئاً في المرة القادمة.

في الحقيقة موقف كهذا جعلها تدرك قيمة الصداقة. فالأصدقاء ليسوا كالمشروبات الغازية تتخلص منها بعد شربها.  
أثناء العشاء صاحت أليس :  
- يا فتيات، في الغد سأزور عمتي. أعتمد عليكن في إدارة المنزل."  
قاطعتها نوريكو و روزيتا :

- أنا لذي موعد مع ابنة خالي.

- وأنا سأقدم لزميلتي دروس خصوصية في العلوم. لا أستطيع البقاء في المنزل. ماذا عنكما يا بياتريس و أوديت؟.

قالت بياتريس في قلق:  
- أناaaa.... وعدت والدتي بزيارتها غدا... آسفة.

- حسناً.. لم يتبق غيري.. سأبقى في المنزل مع بيانكا و إنجي.

قررت أوديت البقاء مع بيانكا و إنجي في المنزل هذا لأنها خسرت في مباراة أمام خصمها في الإعدادية.  
و في الغد، كان الجميع خارجاً.. شعرت بيانكا بالملل. فأوديت بقيت في غرفتها و إنجي منغمسة في اللعبة الجديدة التي انتشرت في الأسواق ،حتى سألت أوديت :

- أوديت؟.. هل يمكنني الخروج قليلاً؟ أشعر بالملل.  
نزعت سماعة الأذن و أجابت:

- آه لا بأس. لكن لا تتعدي كثيراً.

خرجت إلى الشارع، و توجهت إلى الملعب حيث إدوارد، عندما  
لمحته عيناها توجهت إليه بسرعة فضمها قائلاً :  
- بحثت عنك بالأمس لكنني لم أجذك. فأين كنت يا بيانكا؟.

- حكاية طويلة. ذهبت إلى جدتي..

- حقاً! و هل قضيت وقتاً ممتعاً هناك.

فنظرت إليه ملياً ثم أردفت: أجل لكنني ذهبت لأسألها عن أمر ما.  
استغرب إدوارد من كلامها، ثم قام بإجلاسها على الكرسي و  
باشرها الحديث:  
- صغيرتي بيانكا أخبريني بالذي حدث، ربما أستطيع المساعدة.

بيانكا لم ترد إخباره لكن و لتقنتها به صارحته قائلة :  
- قبل مدة، اكتشفت أن والدتي إرتبطت برجل قبل زواجها من أبي،  
البارحة زرت المنزل الذي كنت أعيش فيه..و وجدت فيه رسالة  
كانت قد تركتها لي قبل وفاتها. أخبرتني فيها بالتفاصيل. و عرفت  
أن لي أخا من زوجها الأول لكنها لم تذكر لي إسمه، ثم قمت بزيارة  
جدتي لعلها تعرف شيئاً لكن و للأسف هي أيضاً تجهل مكانهما و  
لسوء حظي فقد نسيت كل شيء يتعلق بأخي متحججة بمرور زمن  
طويل على ذاك الموضوع، و أنا أريد العثور عليه.  
- حسناً. فهمت، سأساعدك في البحث عنه. هل توافقين؟.

قبلت بيانكا مساعدة إدوارد لها. لكن و بعد بحث دام ساعات في المستشفيات لم تفلح هذه المحاولة. حتى سألتها إدوارد سؤالاً :  
 " بيانكا ما كان إسم زوج والدتك؟ هل تعرفين؟...."  
 - على ذكر هذا أذكر أن إسمه كان "ألكسندر".  
 - هاه، ياللمصادفة. أتعلمين أن والدي يدعى ألكسندر أيضاً.

عندما سمعت بيانكا هذا، راودتها شكوك عديدة : "ماذا لو كان.....؟".  
 وقتها خطر ببالها أمر، إذا أرته الصورة فقد يتعرف عليه و بالتالي تكون شكوكها صحيحة. فأشارت إليه:  
 - إدوارد، هل تأتي لزيارتي في المنزل، سأعرفك على عمي.. و سأريك صورة لأمي مع زوجها السابق لربما تعرفه.  
 - آووه هل أستطيع، شرف لي ذلك.

شردت قليلاً ثم قالت:  
 - لقد فقدت أمي قبل أن أعرف الحقيقة..

- ههه، لا داعي للقلق، سنعثر عليها معاً، أنا لم أقابل والدتي من قبل... حتى والدي لا يحدثني عنها مطلقاً.

بيانكا كانت تدرك مرارة فقدان الأم لأنها مرّت بشيء مماثل لهذا عند مكوثها في المكسيك.  
 عادت بعدها إلى الملعب مع إدوارد وطلبت منه اللعب معها. لم يعترض أبداً، وظل الفريق يتابع هذه المنافسة بين طفلة و شاب.  
 قبل غروب الشمس، أخذ أعضاء الفريق استراحة، و دعا أنجلو بيانكا للجلوس بجانبه. كانت تعرف أنه شخص لعب لذلك رفضت و جلست بالقرب من إدوارد. ما جعله يثير غضبها بقوله :

- ألا تعلمين أن الكابتن لا يطيق الأطفال لأنهم سبب للمشاكل؟.
- فقطبت حاجباها و قالت:
- آاه طبعاً فالأطفال مثلك يسببون الصداع.

انفجر الجميع ضاحكاً غير منتظرين رداً قاسياً كذاك من طفلة، و سرعان ما ندم أنجلو على العبث معها.

قضت بيانكا وقتاً مرحاً مع إدوارد و رفقائه. لكن عند عودتها إلى البيت بدأت أوديت بإلقاء محاضرة على مسامعها. و في وقت العشاء اجتمعت الفتيات من جديد، كل واحدة منهن تقص ما جرى معها ، و أما بيانكا فجعلت مغامرتها الجديدة سرا بينها وبين إنجي. الصديقة المخلصة.

\*\*\*\*\*

\*\*\*\*\*

\*\*\*\*\*

لا تزال بيانكا تصرّ على معرفة الحقيقة، هذه الأيام صارت شاردة الذهن، ما جعل رفيقاتها يدركن أن بها خطباً ما.

ولكي تزيل عنها ذلك الشرود، قامت بدعوة إدوارد إلى المنزل بعد إلحاح شديد منها لآدم و بياتريس، الحقيقة أن بياتريس تكنّ لبيانكا حباً كونها صغرى الفتيات، لذلك لا ترفض لها طلباً خصوصاً عندما تبدي تلك التعابير اللطيفة على وجهها الملحّ. أما أوديت فهي غير مبالية أبداً، و كثيراً ما تكون منغمسة في عالمها الخاص، ربما هي هكذا بسبب الجو العائلي الذي عاشته في صغرها.

بيانكا متحمسة جداً لملاقاة إدوارد، تجلس على الكرسي و تبدأ بالترنح، ثم تنهض وتعاود الجلوس مرة أخرى. كانت الساعة تشير إلى الثانية تماماً، بقيت نصف ساعة على الأكثر، في هذه الأثناء تعدّ بياتريس كعكة الشوكولاتة السوداء المفضلة لدى بيانكا التي كانت تتابع في صمت خطواتها وما إن يغيب بال بياتريس حتى تغمس إصبعها في كريمة الكاكاو. الكعكة جاهزة و كل شيء معدّ، لم يبق سوى وصول الضيف.

رن الجرس. و بيانكا تنادي:  
- لقد وصل إدوارد!!!! لقد وصل....

عندما فتحت الباب، و رأت وجهه الباسم، اشتعل قلبها و إرتمت عليه قائلةً :  
- إدوارد شكراً لمجيئك... أنا سعيدة جداً. تفضل بالدخول.

- أنا من عليه شكرك لدعوتك لي. إقبلي مني هذه الهدية المتواضعة.

- أنا عم بيانكا، شكراً لا اعتنائك بها يا سيد إدوارد تفضل.

و في غرفة المعيشة أقامت بيانكا جلسة تعارف بين إدوارد و رفيقاتها فجلست بجانبه متفاخرة ولكي تغيضها إنجي أردفت في وجهها :

- بيانكا لا تلتصقي بالسيد إدوارد هكذا، ستزعجينه هيا إبتعدي.

- هذا ليس من شأنك أبداً. أنت بلهاء يا إنجي.

ظل إدوارد يبتسم فقط من جدال هاتين الصغيرتين. حتى جاءت بياتريس تصرخ :

- إجلسا مكانكما أنتما، هيااا بسرعة....!!!!

- حالاً اضر. نحن آسفان.

حان وقت الكعكة التي إنتظرتها بيانكا طويلاً، عندما قامت بتذوقها رحلت إلى عالم آخر. الشوكولا الداكنة كانت لذیذة بحق؛ وإكتملت فرحتها بقول إدوارد: «هذه الكعكة لذیذة حقاً! إنها تشعرني بالسعادة».

كلامه أخلج بياتريس حتى لمحت بيانكا إحمرا ر وجنتيها لأول مرّة، كان منظرها مضحكا بالنسبة لإنجي.

- غرفتك أكثر من رائعة بيانكا، هل تخافين ليلاً أم أنك شجاعة؟!

- إدورد أنا لست طفلة صغيرة حتى أخاف!

- لست طفلة؟ أنت في الثامنة، متأكد أنك ستبلّين فراشك لو رأيت شبحاً، هه.

- مستحييل .

هذه المحادثة جعلت بيانكا سعيدة رغم تعمّد إدوارد إثارة غضبها، ربما لم تلنقي شخصاً مرحاً وصريحاً مثله في حياتها. من ثمّ قام فتوّجه إلى النافذة، كانت تفاصيل وجهه توحى بالحزن، فما إن هبّ نسيم الخريف حتى تطايرت خصلات شعره الأحمر التي ترجمت الحزن في عينيه إلى غضب و لهيب. إستفسرت بيانكا عن قلقه فتمتعت:

- تبدو اليوم حزينا على غير العادة.. .

كان همسها ذاك مسموعا من قبل إدوارد فالنفت إليها، كان يبتسم بالرغم من أن الحزن واضح على تلك الإبتسامة، شعرت بيانكا أنها مختلفة قليلاً، مختلفة عن إبتسامة إدوارد المعروفة:

- لا أريدك أن تعيشي جاهلة عن الماضي مثلي..

لم تفهم بيانكا شيئاً، إنتابها إحساس غريب. وكأن صدر إدوارد يضيق شيئاً فشيئاً، هل هو الخوف؟ أم القلق؟ أو الضعف؟.

لم تتماسك طويلاً حتى أجهشت بالبكاء، الدموع تنهطل كالمطر على قميص إدوارد الأبيض، لقد اختار كثيراً من سبب بكائها، فلبث ملياً ثم أمسك يدها و جلس على السرير؛ و قام بإقعادها على حجره فلاطف وجهها الباكي و مسح دموع مقلتيها.  
بيانكا ظلت تحدّق في عينيه فقال:  
- هل أنت بخير؟.

- أجل، شعرت بأنك ستختفي .. أنا أحبك ابتسامتك المعتادة أكثر.

- يا الهي، كنت فقط أسترجع بعض ذكرياتي. لم يكن عليك البكاء أخفتني.

- آسفة. هذا لأنك تتخفى بثياب المرح مع أنك تشعر خلاف ذلك. لمست حزناً في عينيك يا إدوارد فلا داعي للتظاهر.

حدق في عينيها اللامعتين ملياً و كأنه يقول في نفسه " هل هذه حقاً طفلة في السابعة ؟ " ثم أردف:



- حقا !! أنا أشعر بالأسى عليك لعدم تمكّنتك من العثور على شقيقك، لقد مررت بمثل هذا عندما بدأت رحلتي في البحث عن والدتي، كنت أحمل صورتها معي و أسأل أقرباء والدي عنها، البعض منهم أشفق عليّ أما غيرهم من الطبقة الأرستقراطية فقد حظروا التّكلم معي في شأنها و هذا أزعجني، كان ذلك سبباً مقنعاً لتنمّي الفجوة بيني و بين والدي....لذا أريدك أن تعثري على شقيقك في أقرب وقت و سأكون بجانبك إلى حين ذلك.

و أخرج من جيبه قلادة تحمل صورة لثنائين سعيدين، حملتها بيانكا تحديق في تفاصيلها، كانت أحادية اللون لذا أدركت بعد فترة أن الفتاة هي نفسها والدتها و الأمر ينطبق على الرجل فقد كان ألكسندر الذي تبحث عنه.. أطرقت بعينيها نحو إدوارد فاعرة فاها و انتفضت نحو درج خزانتها و أخرجت الصورة..  
- انظر أليسا نفس الشخصين؟.

قطب حاجباه يحملها بين أنامله جاحظاً:  
- إنه والدي، من أين لك هذه الصورة يا بيانكا.. حتى أنا لا أملكها..  
- لقد تركتها والدتي في خزانتها.

تبادلا النظرات فصاح كلاهما جزعاً: " أنت أخ(ت)ي !!! "

دلف آدم من الضجيج قائلاً:  
- ماذا بكما تصرخان؟.

أسرعت نحوه بيانكا تحبس دموعها قائلة بنفس متقطع:  
- إنه.. أخي.. عمي !!.

- هااه، من إدوارد؟.

استقام إدوارد غير مصدق و هو ينظر إلى الصورتين من جديد ثم أراهما لآدم دون أن ينبس ببنت شفة.. كانت أحداق آدم تتسع غير مصدق، لكن تعلقهما ببعض أثبت ذلك في الحال.

انتاب بيانكا خوف من أن يكون ما يجري معها الآن مجرد خيال أو حلم لا تريد الإستيقاظ منه. أخبرت بعد ذلك إدوارد بأن يسأل والده فهو مفتاح هذه القضية و قد وافق فوراً. شعرت بيانكا بحماسة شديدة وشوق لمعرفة الحقيقة، الحقيقة التي كانت تبحث عنها.

في اليوم التالي، اجتمعت بإدوارد في متنزه المدينة وناقشته حول الذي سيفعلانه مع والده ألكسندر، وما جعل الأمر أكثر تصديقا؛ كون ألكسندر هو أيضاً إسم زوج والدته بيانكا السابق.

توجه الإثنان إلى حيث هذا الرجل، كان منزل إدوارد عظيماً، و أمام الباب اصطف الخدم لإستقباله، بيانكا لم تصدّق أن منزلاً كهذا موجود في المدينة، من ثم طلب إدوارد مقابلة والده من إحدى الخادِمات اللواتي كنّ يرتدين فساتين موحّدة بالأبيض والأسود. و لأنّ الأسياد نادراً ما يجدون الوقت الكافي للتحدّث مع أحدهم ظلّت بيانكا و إدوارد ينتظران في القاعة الرئيسية للمنزل، لكن عندما حضر السيد ألكسندر؛ انتاب طفلتنا الهلع، لقد كان رجلاً ضخماً الجثة، حاد الطباع، شهل العينين يُسراهما إحتجبت خلف شعره الشائب، إنه غامض جداً، لم تستطع بيانكا النطق بكلمة واحدة على خلاف إدوارد الذي كان لا يخاف من تلك العيون أبداً. قام بشرح الوضع له و ما زاد الطين بلة، شخصيته المتبجحة التي أمسى وجه إدوارد بها مستكيناً.

بعد مناظرة بين الأب و ابنه، إرتسمت على محيّا ألكسندر ضحكة ساخرة ربما هذا ما كان ينتظر حدوثه. كان يتوقع أن هذا اليوم سيحل عليه قريباً. ثم أسند ساقه على الأخرى، لقد كان في مراس شديد. وبيانكا تتابع أقواله بصمت و فطنة كما التمسّت في حديثه استصغاراً لقيمة والدتها جوليا و ذلك عندما أخذ يقول:

- آوه، حسناً... جوليا كانت زوجتي في يوم من الأيام لكنني نسيت كل شيء عنها ولا أريد الحديث في هذا.. لقد انتهى كل شيء بيننا بالفعل.. أنت إذن ابنتها؟.

- نـ.. نعم.

- أبي، بيانكا.. أختي، اسمح لها بالمجيئ إلى هنا..

أفلتت من الكسندر ضحكة خافتة ثم تمتم جاحظاً:

- أختك.. هذه الفتاة ابنة جوليا إذن هي أختك؟.

كان يبدو كالمجنون، بعد هذه الكلمات الجامدة غادر القاعة فوراً دون إدراك منه السبب الحقيقي وراء حديثهم ذاك. لقد حزنت بيانكا كثيراً لسماعها كلاماً اعتبرته إهانة لكرامة والدتها.. لم تدري ما ستفعل؛ فقط هو من يستطيع مساعدتها، باتت الدموع لا تفارق عينيها الجميلتين وملجؤها الوحيد ذلك الصدر الحنون.

طلب إدوارد منها المبيت في منزله وأوكل إليها خادمة تلبّي رغباتها وأودعها غرفة نوم ساحرة كانت تراها بيانكا فقط في أحلامها. كان قد أعلم عبر الهاتف آدم حتى لا يشعر بالقلق فوافق....

صارت الساعة تشير إلى منتصف الليل، و حلوتنا تفكر و تفكر، تارة تتقلب يمينا و تارة أخرى يساراً ، كيف ستنام بعدما عرفت الحقيقة أخيراً.

خرجت من الغرفة و بحثت عن إدوارد، عند لمحها لرئيسة الخدم، لم تتردد في سؤالها فقادتھا إلى غرفته. بالتأكيد تفاجأ من مجيئها إليه، فطلب من الرئيسة تركها معه، و سأل بيانكا والإبتسامة ترسم على وجهه المتباهي:

- ماذا هذه المرّة يا أختي الصغيرة؟ هل تشعرين بالخوف؟...  
مناداته لها بأختي جعلها تضحك كثيراً فصاحت بحماس: لا إدوارد، لكنني لا أشعر بالنعاس، أريد النوم بجانبك....  
- حسناً لا بأس... سأحملك إلى غرفتك عندما تخلدين إلى النوم.  
إتفقنا؟

كانت ليلة هادئة و لطيفة، أحس إدوارد أنه محظوظ لحصوله على أخت صغيرة كبيانكا، وجهها المرح بدا مضيئاً تحت نور القمر، و يديه الخشنتين مسح خدّها الناعم الذي حمل دموعها المتألّئة و لطف وجنتيها المتورّدين كالورد بل أحلى.

في صباح اليوم التالي، أخذ إدوارد بيانكا إلى منزلها لكنه صارحها قائلاً:

- بيانكا.... ما دمت أختي حقاً، أفكر في إحضارك للعيش معي ما رأيك بهذا. لن أطلب منك ذلك فوراً، بل سأدعك تفكرين في الأمر ملياً....

بيانكا لم يخطر ببالها أبداً أنها ستعيش بعيدة عن رفيقاتها يوماً ما، كانت سعيدة بفكرة إدوارد لكنها ترددت في ترك منزل عمها بل وكيف ستخبره بهذا. هي الآن في صراع عاطفي شديد. فكيف ستخرج من هذه الدوامة التي تحاصرها ؟ .

\*\*\*\*\*

\*\*\*\*\*

\*\*\*\*\*

صارت بيانكا تتفادى الحديث مع رفيقاتها، وأمست حزينة، ضائقة، وكأن الشمس حجبت عنها نورها أو أن الدنيا طوت جدرانها عليها، فلاحظت بياتريس هذا التحول المفاجئ الذي طرأ على بيانكا و بشتى الطرق ألحّت عليها إخبارها بما جرى معها، بداية ترددت كثيراً ولكنها أفصحت بما يجول في خاطرها فقالت: - بياتريس، البارحة اكتشفت أن إدوارد أخي الأكبر .

- حقاً، هذا آخر ما كنت أتوقع..... مبارك لك.

أردفت بيانكا:

- و والده هو زوج والدتي السابق، وقد عرض عليّ الانتقال للعيش معه، على أن أفكر في ذلك بروية و بإرادتي طبعاً لكنني مترددة كثيراً، ساعديني يا بياتريس.. أخشى أن يغضب عمي.

- بيانكا لاتقلقي، أعلم أنك ستتخذين القرار الأنسب، فكري ملياً ولا تشغلي بالك بنا فحتى لو غادرت هذا المنزل سنبقى على إتصال دائم و سنلتقي في صف الفنون بالتأكيد لذا لن نتخلى عنك أبداً. اتفقنا؟.

كلمات بياتريس أعادت لبيانكا روحها المعهودة و ذكّرتها بمعنى صداقتهن و وحدتهنّ فكما الأجساد تفترق فإنّ الأرواح تجتمع؛ و لو بعد حين.

الأوقات التي قضتها بيانكا مع بياتريس، أوديت، أليس، روزيتا، نوريكو ، إنجي و العم لن تنساها أبداً، هي لم تعثر على أخ أكبر فقط بل و أخوات كنّ عائلة حقيقية لها. سألونا مرة عن الصدق فقلنا في الشدّة و الهناء، سألونا عن الحب؛ ترددنا لكن أشرنا بأن المعنى قد ينقلب، أما الوفاء فأجبنا بذلك أروع الخصال.  
لا تحتار فإن كان الوفاء سيكون الحب صادقاً.

و هكذا كانت تفكرّ بيانكا لم تبقى سوى خطوة واحدة أمامها و هي إتخاذ القرار الحاسم مع عمها:  
- سأذهب للعيش مع إدوارد يا عمي؟.

التفتت إليها و بيده كأس العصير:  
- تعيشين معه؟، لماذا؟.. محال.. هل صرتِ تفضلينه علي أيتها الخائنة؟؟.

- ليس كذلك، لكنه يريدني معه مادمت أخته.. فقط..

- حسن، اذهبي !!، كنت على كل حال سأخبرك بأن زوجتي ستعود الأسبوع القادم و سأنشغل كثيراً، لم أشأ أن أجعلك وحيدة لذا ما دمت سعيدة معه فهذا أفضل.

إنجي لم تتقبل فكرة إنتقالها بتاتاً إلى منزل إدوارد رغم أنها ستقابل والدتها قريباً ، ما عسر الأمر على بيانكا التي ظل عقلها تائهاً ، لكن بعدما أدركت أن لا مفر من ذلك اتفقت مع الفتيات على إقامة حفلة وداع لصديقتهن الصغيرة.

في اليوم التالي ، غادرت بيانكا إلى منزل إدوارد، وغداة وصولها قام باستقبالها ، فطلبت منه مساعدتها في نقل حقائبها فوافق فوراً، إذ أوكل هذه المهمة لمساعدته وخدمته.  
تحدثا كثيراً مع بعضهما و سألهما عن جديتها في العيش معه قائلاً : -  
واثقة من أنك تريدين العيش هنا معي؟ هل وافق عمك؟.

- أجل، لقد كان حلمي الحصول على أخ أكبر. لكنني خائفة من السيد ألكسندر. لذلك أنا متوترة قليلاً.

- لا داعي للقلق، إنه مشغول جداً لدرجة أنك لن ترينه إلا نادراً.

بعد ذلك، غادرت المنزل وفي طريقها كانت تخبر نفسها: « لقد إتخذت قراراً و لن أراجع أبداً.. أليس كذلك يا أمي؟ ».

أثناء وصولها.. قامت بإلقاء نظرة أخيرة على المنزل، سكون غريب أثار قلقها. و ما إن همت بدخول غرفة المعيشة حتى صاح الجميع: « أهلا بعودتك!! بيانكا!!! » لقد كانت حفلة مدبرة من أجلها، استمتعت فيها حتى آخر لحظة، كانت أصواتهن تعلو المنزل و اختتمت الحفلة بصورة جماعية لهنّ كتذكّار لرفيقة دربهن بيانكا و قدّمن لها هدايا متميزة حتى تتذكّرهن دائماً، و العجب من هذا أقمن مأدبة تكفي جيشاً كاملاً من الفرسان ما جعلها تصاب بالغثيان . و نادراً ما كانت أوديت تبتسم أو تضحك في وجه بيانكا؛ هذه المرة فعلت لقد قامت بضم بيانكا لدقائق أخبرتها فيها:

- سأشتاق لك كثيراً أيتها الطفلة البكاءة، لا تثيري المتاعب في منزلك الجديد.

- و أنا لن أجد شخصاً بارداً الأعصاب مثلك أبداً سأشتاق لك أيضاً.

و لكي تقوى روابط الصداقة لديهن، هذه الليلة سهرن كلهن مع بعضهن حتى منتصف الليل، و ترامت الوسائد هنا وهناك ناسيات أمر انتقال بيانكا في تلك اللحظات السعيدة.

أشرق شمس الصباح و حان موعد الفراق، لقد أتى إدوارد بسيارته الفخمة ليقلّها ، و قام بشكر المدرب والأخريات لإعتنائهن ببيانكا لكن إنجي تشبّثت بها، لم تتحمل وداعها ففي القريب كانت معها واليوم سترحل عنها بهذه السهولة. هذه سنة الحياة لقاء موعود و فراق مشهود.

غادرت بيانكا و ظلّ طيفهم يغيب، كان إدوارد شاهداً على هذا السيناريو لكنه لم يستطع فعل شيء سوى البقاء كشخصية ثانوية فيه.



لقد حصلت بيانكا على غرفة ضخمة و مدهشة بجانب غرفة إدوارد و صارت ترتدي أغلى الأثواب وتأكل ما يأكله الأسياد غير أنها افتقدت الطعام البسيط الذي كانت تعدّه بياتريس. لقد أضحت الآن من عائلة ألكسندر يوهان المغتربة مثلها مثل عائلتها، وما نال إعجابها أنها صارت سيّدة صغيرة في ذلك المنزل العظيم.

و أثناء تناول العشاء وجدت بيانكا صعوبة في التأقلم مع آداب الطعام المعتادة لدى تلك العائلة و قد واجهت الخادمة إيما مشاقاً كثيرة في تعليمها أما إدوارد فكان يضحك عند إسقاطها لسكين أو عدم تمكّنها من إستعمال الشوكة، طُرف بيانكا لا تنتهي أبداً و لو كان السيد هناك لנالت محاضرة منه عنوانها " تعلم آداب الطعام قبل أن تصير سيداً. "

حان موعد النوم و كالمرة السابقة تسللت بيانكا إلى غرفة إدوارد الذي وجدته يطالع كتابا ، فأردف :  
- لا تتسلي هكذا كاللصة... أيتها الشقية!!

- حسناً... أنا آسفة يا أخي. إدوارد هل تنزعج عندما آتي إلى هنا؟

- أبداً.... و لكن على الأقل أطرق الباب أولاً، فلو رأي أحدهم تتسللين هكذا سيُعلم والدي بالأمر وربما سينقلك إلى غرفة أخرى فالجميع هنا يخشونه. سآتي إلى غرفتك حالا و سأبقى بجانبك حتى تنامي إتقنا؟

- أجل. شكراً!!.. و الآن أسرع.. هيّا!!..  
- حسناً... أنا قادم ...

\*\*\*\*\*

\*\*\*\*\*

\*\*\*\*\*

و مضت أسابيع بسرعة، هذه المرة تأخرت بيانكا في الإستيقاظ، السكون علا في النواحي، النافذة كانت مفتوحة وعلى مرأى من ناظرها ألفت الحديقة الصفراء السلام على الطفلة الصغيرة. ثم التفتت يميناً ويساراً ولم ترى إدوارد في أرجاء الغرفة. فقامت من السرير و انتعلت خفيها الورديين بأذني الأرنب واتجهت إلى مكتبه، كان يغير ملابسه، بدت رسمية جداً، ترى أين هو ذاهب؟ هكذا تساءلت بيانكا في نفسها.

ظلت تراقب تحركاته من بعيد إلى أن أردف متعجباً:  
- بيانكا إستيقظت أخيراً، هل نمت جيداً ليلة أمس؟.

- أجل... كانت ليلة رائعة. إدوارد إلى أين أنت ذاهب؟

- أنا؟ لدي موعد في الجامعة و سأساعد والدي في الشركة قليلاً. لذلك سأكون مضطراً لتركك وحدك هنا في المنزل يا حلوتي. لن أتأخر، أعدك.

- حسناً... سأذهب إلى المدرسة. لذلك لن أشعر بالملل. لا تقلق، سأنتظرك.

من حسن حظ بيانكا أن إنجي زميلتها في الصف وإلا لكان يومها عادياً. من جهة أخرى هي سعيدة لأنها ستلتقي بها من جديد، لقد كانت لحظات رائعة قضتها بيانكا مع إنجي.

في المدرسة، لمحتها وسط حشد من الطلاب ، لقد أعلنوا عن نتائج الفصل الدراسي الأول، فصاحت :

- إنجي!!!! اشتقت إليك كثيراً يا صديقتي، ما الذي يجري هنا؟

- بيانكا!!!! كيف حالك؟!... إنه إعلان لنتائج الفصل الأول دعينا نرى... حسناً ..هنا يا بيانكا!.

- هاااه!!؟!..«بيانكا فريد و إنجي فريد ستخضعان لإمتحان تعويضي الأسبوع القادم» يعني أننا رسبنا يا إنجي...

- و إذا لم ننجح سنعاد إلى الصفّ الثالث... هذا لا يعقل!!  
نتيجة متوقعة من إنجي و بيانكا، اللتان قضتا الفصل بأكمله تلهوان،  
والمصيبة الكبرى كيف ستخبر إدوارد بهذا؟.

سعادة لقاء الفتاتين ببعضهما سلبها هذا الخبر العاجل و الرهيب، وقد بدأت المشاكل تتهاطل على بيانكا منذ الآن.

بعد الدوام إستدعى الأستاذ المحنّك بيانكا وإنجي و حدّد موعد إختبارهما، لم يكتفي بهذا بل قدم لهما واجبات إضافية عقوبة لهما على تقصيرهما و عدم جدّيتهما في الدراسة.  
و في طريق العودة قامت بيانكا بسؤال إنجي:  
- هل ستخبرين عمي بأمر رسوبك؟.

- لن أفعل بالتأكيد، إنّه عصبي المزاج مؤخراً و سألقى حتفي لو علم. سأخبر بياتريس و ستساعدني بالتأكيد. ماذا عنك؟

- لا أعلم... إذا سمع بهذا السيد فلن يرحمني..أنا متأكّدة ، سيشعر بالخزي لجعل فاشلة مثلي تقطن في قصره. أما إدوارد فـ .....  
.....

- لا داعي للقلق ستجدين حلاً أنا واثقة.  
بعدها عادت بيانكا إلى المنزل، كانت متوترة جداً، إدوارد ليس هناك ليهدئ من روعها و يؤنسها... أمامها فقط ذلك الصف من الخدم الذي لا يجيد سوى التحديق بها. توجهت فوراً إلى غرفتها و أغلقت على نفسها رغم مناجاة الخادمة لها.

وصل السيّد ألكسندر و أشار على رئيسة الخدم إيمّا:  
- هل إدوارد هنا أم لا؟

- لم يعد من الشركة بعد يا سيدي.

- ماذا عن تلك الفتاة الصغيرة؟.

- لقد وصلت قبل قليل و أغلقت باب غرفتها على نفسها. بدت لي  
مكتئبة.

- هذا لا يهم. إذا عاد إدوارد أعلميه أنني بانتظاره في غرفتي.

- حاضر سيدي.

هذا مؤكد فألكسندر لا يعتبر بيانكا أحد أقاربه مطلقاً، كيف ذلك و هو  
غير مرتاح بوجودها أصلاً.  
بعد فترة وجيزة عاد إدوارد إلى المنزل، اتجه إلى غرفته فوراً؛ و  
غير ملبسه، كانت آثار الإرهاق ينطق لها الجبين. أخبرته رئيسة  
الخدم بما طلبه منها السيّد فذهب إليه على الفور. وهو يعلم أن نادراً  
ما يستدعيه إلى غرفته.

دخل إدوارد بعدما سمح له والده بذلك، فجلس على الأريكة يقابله  
وجهاً لوجه، حتى باشر السيد الحديث:  
- هل تعلم لم استدعيتك إلى هنا؟

- لا أبدأً، أنا نفسي مستغرب.. عساه خيراً.

- بلغتني مكالمة هاتفية من زوجتي صباح اليوم، أخبرتني فيها أنها ستحضر غداً إلى هذا المنزل. و ستمكث هنا أياماً عدّة.

- ماذا؟! أنت تمزح. لماذا لم ترسلها لمكان آخر؟ ألا يكفي ما فعلته بي في المرّة السابقة؟

- لا تناقشني كثيراً، لقد تقرر الأمر وانتهى، لقد أعلمتك حتى تقوم باستقبالها لأنني سأأخر غداً في العودة. والآن انصرف...

أمسى إدوارد يفكر كيف سيقضي الأيام القادمة مع زوجة أبيه ،حتى أنه نسي تماماً أمر بيانكا إلى أن دخل إلى غرفته، واستلقى على السرير، لقد أحسّ بوجود جسماً غريباً هناك. كانت بيانكا....

- ما الذي تفعلينه هنا أيتها الشقية؟ لقد أخففتني.

- آسفة... أهلا بعودتك يا إدوارد، اشتقت إليك كثيراً.

- و أنا كذلك....إشتقت لك كثيراً....

- إدوارد؟ لم أنت مكتئب هكذا؟ هل حدث شيء؟

- ستزورنا زوجة والدي غداً يا بيانكا...

- هاااه!! لهذا شعرت بشيء مفقود منذ مكوثي هنا، أنا لم أرى زوجة أبيك التي حدثتني عنها. وما المشكلة في مجيئها؟

- إنها امرأة متسلّطة تسعى لطردني من هذا المنزل، لا أتمنى أن تقابلها أبداً، ستحول حياتك إلى جحيم، متأكد من هذا.

كان إدوارد على دراية بالذي سيحدث مستقبلاً، و لا ينتظر أن تكون الأيام الآتية هادئة و مطمئنة. أما بيانكا فشعرت بالحماسة لمقابلة هذه المرأة التي أقلقته أخاها هكذا.

و إبان تلك الهالات السوداء التي كانت تنبعث من إدوارد، طرح على بيانكا سؤالاً:

- كيف كان يوم دراستك يا صغيرتي؟

ارتبكت بيانكا كثيراً لكنها قد قررت عدم اخباره ظناً منها أن مشاكله تكفيه فقالت مراوغة:

- كان يوماً رائعاً... هل تعلم؟ التقيت بإنجي و لعبنا معا لوقت طويل...

- حقاً بيانكا ، يسرني سماع هذا ...والآن لنذهب لتناول العشاء.

مجريات اليوم كانت ملخبطة لا تعرف فيها بيانكا ما إن كانت سعيدة أم حزينة، و تستمر الحياة فلربما الغد سيكون أفضل.

عند التاسعة و النصف، تذكرت بيانكا أنها لم تحلّ الواجبات التي قدّمتها لها الأستاذ المحنّك فاستأذنت من إدوارد و انصرفت إلى غرفتها.

لقد التمس من تصرفها سراً تخفيه عنه، لذا قام بتتبّعها و لأن بيانكا كانت متوترة نسيت الباب مفتوحاً فوجدها إدوارد فرصة ليتسلل بها إلى الداخل. كانت قد أخرجت أدواتها و دفنوها و شرعت في الحلّ ما ترك هذا إدوارد حائراً و متسائلاً :

- إنها تقوم بواجباتها حقاً! ربما كنت أتهم لا غير.

فجأةً خطر بباله ما قاله صديقه صباح اليوم : " هذه أختي الصغرى، اليوم أعلنوا عن نتائج الفصل الدراسي الأول في الابتدائية، تخيل لقد كانت من الأوائل، لذلك وعدتها بنزهة معي. "

فأردف إدوارد في نفسه و علامات التعجب لا تفارق محيّاها: «لا أظن أن هناك إبتدائية أخرى في هذا الحي، هذا يعني أن نتائج بيانكا عرضت اليوم أيضاً، و من الغريب أن تحصل على وظائف في نهاية الفصل ...».

لم تشعر بيانكا بوجوده وظلت تقوم بواجباتها حتى انتهت منها جميعا فقالت و هي تنتهّد:  
- لا أريد أن أخفي هذا الأمر طويلا عن إدوارد ...

فردّ إدوارد وهو يدنو منها إلى أن تقابلت عيناها :  
- تخفي عني ماذا يا بيانكا؟ هيا أجيبيني حالا.....

انتفضت بيانكا بعينين جاحظتين قائلة:  
- منذ متى وأنت هنا؟..

- هذا لا يهم. أخبريني بالذي تخفيه عني... ألم يعرضوا اليوم نتائجكم في الإبتدائية يا بيانكا؟ لا تقولي لي أنك رسبت.....!!

- أنااا ! أنااا ! ....أنا لا أعلم؟

- آوه...كما توقعت. لقد رسبت بيانكا لا يمكنك إخفاء هذا عني فالإجابة واضحة على وجهك.

اكتشف إدوارد سرّ بيانكا، لم ترد إخفاء شيء عنه لكنها ترددت منذ البداية، الحصار الذي فرضه عليها أشعرها بالخوف، لم تتمالك نفسها حتى أجهشت بالبكاء مرعدة:  
- أنا آسفة.... لا تطرني أرجوك .

كان إدوارد يكتّم ضحكته، فضمّها إليه و طمأنها بقوله:  
- أطرّدك؟، هه خيالك واسع... لا داعي للبكاء يا حلوتي، كان عليك إخباري منذ البداية. لماذا أخفيت الأمر عني؟ ... هل كنت خائفة مني؟.

- لا... ولكنني وجدتك حزينا و لم أرد أن أثقل عليك بخبر سيئ آخر..

- غير صحيح!!! أنا مستعد لسماحك دائماً و في أي وقت، لن يشغلني عنك أي شيء لذا لا تقلقي لأشياء تافهة. و الآن دعك من هذا و لتخلدي للنوم...

شعرت بيانكا بالسعادة الغامرة ، طمأن قلبها الصغير الذي سلبه رسوبها... ذلك الوجه المبتسم.  
بعدها استسلمت للنوم بجانب الأخ الذي كان صدراً رؤوفاً يحميها إلى أن تغفو فيغادر إلى غرفته ويبقى الشوق باقياً.

\*\*\*\*\*

\*\*\*\*\*

يأتي يوم النحس و المصائب في نظر إدوارد، اليوم عطلة نهاية الأسبوع و زوجة أبيه في طريقها إلى المنزل، أما بيانكا فقد ظلت نائمة وهي ناسية تماماً حدث اليوم.



خرج إدوارد باكراً بعدما تناول فطوره مع والده، واتجه إلى مطار العاصمة آملاً أن تحدث معجزة. ولكن هيهات فقد لمحها وسط حشد من الركاب، كانت تضع نظارات شمسية وبين شفتيها تتدلى السيجارة حتى إذا خطت خطوات أقرعت الأرض بوقع أقدامها التي غطيت بخلاخيل ذهبية، لم يتحمل إدوارد مقابلة امرأة كهذه فتصرف على أنها لا تمدّه بصلة إلا أنها طلبته من بعيد بأسلوب متسلط أن تعال و ساعدني في حمل حقائبي. ترى ماذا سينتظره معها؟.

في السيارة بادرت بالحديث الفارغ الذي لا معنى له تشكو ما قاسته في بلاد الغرب مشيرة:  
- لا أصدق أن ألكسندر لم يأتي لإستقبالي اليوم... لقد كانت رحلتي مرهقة جداً... هل تستمع إليّ أيها الوغد؟

- أسمعك... أسمعك... .

وصل إدوارد إلى المنزل و أودع حقائبها لدى رئيسة الخدم "إيما". و في المدخل صاحت بيانكا التي لم تدرك غيابه إلا بعد فترة وجيزة:  
- إدوارد!!!! لماذا لم توقظني؟.... لا تتركني وحدي في هذا المنزل....!!

- بيانكا أنا آسف... كنت مستعجلاً لذلك لم أجد الوقت الكافي لإيقاظك. هذه زوجة والدي السيدة روز يوهان.

لم تلبث السيدة حتى استفسرت :  
- ومن أنت أينها المدللة ؟ ....لم أرك هنا من قبل...

- أنا؟! ..في الحقيقة....  
- إنها أختي الصغيرة بيانكا لا أرى في وجودها مشكلة. أليس كذلك؟.

كشفت عن ضحكة ساخرة:  
- أختك؟ لا تمزح معي.. لم يخبرني ألكسندر أنه تبنى فتاة صغيرة.

قطب إدوارد حاجباه و أردف بعصية:  
- ليست متبناة... إنها شقيقتي من والدتي جوليا المتوفاة .. هل يمكنك  
الدخول الآن؟

- لاداعي لكل هذا الغضب... كنت أتساءل فقط.

فقد إدوارد أعصابه مع روز وظلت بيانكا تتابع ما يدور بينهما وهي  
تحتمي خلفه.

بعد كل هذه الجلبة و اللف والدوران، و أثناء الغداء لم تلبث السيدة  
حتى أصبحت ترقب كل صغيرة وكبيرة تبدر من بيانكا فصارت  
تصيح في وجهها تشير عليها بأداب الطعام المثلى لسيدة نبيلة. وهذا  
ما جعل إدوارد يدخل في نوبة هستيريا من الغضب.

من ثمَّ أخذ بيانكا معه و اتجه إلى غرفته ،لم تتحدث الطفلة بل ظلت  
تنتظر انطفاء غيظه ، كان عصيباً جداً وقتها، ثم قام وسألها:  
- أ لست غاضبة من تصرفها الفظ معك؟

- لا أبداً يا إدورد، المهم أنني لست وحيدة و هذا يُسعدني جداً.

همس مستسلماً:

- فعلاً لديك قدرة عجيبة على الرد.

فاقترب من بيانكا و رفعها عالياً مردداً « أنا أحبك كثيراً يا بيانكا  
أحبك!!.. لن أدع أي شيء يبعدك عني مجدداً. أعدك بهذا!! »

أن تجد شخصاً ما ينسيك أحزانك و آلامك هو في الحقيقة نتاج ما تقدم في الحياة : الحب، الصدق والوفاء ،حتى لو أعرتها لذلك الشخص يوماً ما، فحتماً سيعيدها لك ولو بعد حين.

قضت بيانكا مع إدوارد وقتاً ممتعاً أنساها تسلط السيدة و عجزفتها، فباتت تقص عليه ماضيها و رحلتها الفريدة إلى المكسيك، و وجدته لها منصتاً بعناية ،قصّت وحكت ،صغيرة بصغيرة، حتى أشعرها ذلك بالنعاس لاحظ ذلك إدوارد عليها فقام و أجلسها في حجره و أسند رأسها على صدره هامساً في أذنيها الصغيرتين :  
- سأستمع لبقية حكايتك لاحقاً يا صغيرتي.... أحلاماً سعيدة .

غفت بيانكا ولبقية قصتها رواية، كانت تقصها رغم حزنها الشديد الذي لا يفارق عينيها عندما تتذكر كل لحظة مرت عليها مع والديها جوليا ومايكل.

في غضون ساعتين، كان قد ترك إدوارد بيانكا في غرفته و نزل إلى القاعة الرئيسية، هناك كانت تجلس روز. عند لمحها له من الدَّرَج ، قامت و وقفت في وجهه وأمارات الغضب قد تجسدت في جبينها مردفة :

- لك الجرأة لتركى وحدي هنا أصرار الجدران و أنت مع تلك الحقيرة تستمتعان بوقتكما في الأعلى ناسين وجودي هنا تماماً... لا تبقى صامتاً!! هيا تحدث...

- تعلمين أنني أكره وجودك هنا ولا أرغب في الحديث مع امرأة عجوز مثلك....

- هااه!! عجوزوز؟ ...حسناً.. بيانكا تلك لن تبقى هنا لمدة طويلة على كل حال فألكسندر لن يرضى بها أبداً ...

روز أرادت أن تبثّ القلق في قلب إدوارد و ستسعى لطرد بيانكا من المنزل بشتى الطرق ما إن تتاح لها الفرصة.

وصل ألكسندر إلى المنزل، وقام بالترحيب بـروز قائلاً:  
- مرت مدة طويلة منذ زيارتك لنا أهلاً بك من جديد يا عزيزتي...

- شكراً جزيلاً لك على هذه الإضافة لكنني لست سعيدة بوجود تلك الفتاة الصغيرة بجانب إدوارد...

- فتاة؟ تقصدين بيانكا؟!!!... ليست سوى مجرد طفلة..

- أنا لا أريدها هنا في هذا المنزل، إما أنا أو هي....

- حسناً سأفكر في الأمر ملياً ثم سأقرر...

سمع إدوارد هذه المناظرة التي دارت بين والده وزوجته فتدخل بقوله:

- لن أسمح لك بطرد بيانكا من هنا... إنها أختي ولها الحق في العيش في هذا المنزل ، يكفي أنك سلبت مني مقابلة والدتي حتى توفيت....  
لا تدع هذه المرأة تسيطر عليك يا أبي.. أرجوك...!!

- كفى يا إدوارد... إذهب إلى غرفتك حالاً... هيااا!!!!  
بدأت معاناة الشقيقين مع وصول روز يوهان، عندما عاد إدوارد إلى غرفته و أقفل على نفسه، كانت بيانكا قد إستفاقت منذ فينة، لقد اغرورقت عيناها بالدموع مشيرة بنظرات الخوف و القلق هامسة و قد انحجب ضوء شمس المساء خلف الستائر :  
- لا أريد يا إدوارد....سيطرديني في الحال... أرجوك دعني أبقى بجانبك!!!!!!..

هذه المناجاة من بيانكا هزت قلب إدوارد الذي استكان مما سمعه منها، فأسرع إليها يمسح عن وجنتيها تلك الدموع المتألثة قائلاً:  
- لا تبك بيانكا ستبقيين معي دائماً لا تقلقي... صغيرتي.. حسناً؟.

إنها أول مرة يشعر فيها بالضعف ، بيانكا تبكي دون توقف وهو لا يدري كيف يصلح الأمر...، فقط قام بضمّها بقوة إليه آملاً أن لا تقلت منه مرة أخرى، لأن هذه الصغيرة آخر ما تبقى من والدته. لم يكن في الحسابان أبداً ما جرى في هذا اليوم بالتحديد، انقلبت الموازين رأساً على عقب فكيف ستستوي كفتا ميزان إدوارد يا ترى؟ و ماذا يخبئ المستقبل لبيانكا؟.

\*\*\*\*\*

\*\*\*\*\*

\*\*\*\*\*

لا يزال إدوارد يفكر في كلام روز المشين، ما سينهي هذا الأمر هو والده صاحب القرار و المشورة، الأوقات القادمة هي التي ستحدد مصير الشقيقتين.

في صباح اليوم، غادرت بيانكا إلى المدرسة. كان الدرب مكسو بحلة بيضاء، إنها الثلوج. و في الصفّ لاحظت إنجي شرود بيانكا المستمر في الحصة، ونادراً ماكانت تتحدث مع إحداهن. هذه ليست بيانكا التي أعرفها؟ هكذا تساءلت إنجي.

في الإستراحة، بقيت بيانكا جالسة في مقعدها تنظر من النافذة، تنتهد تارة و تعيد الكرّة مرة أخرى. نادت عليها إنجي مراتٍ عديدة لكنها لم ترد إلا متأخرة. ألحت عليها كي تصارحها بالذي يجري معها غير أن بيانكا أشارت بإبتسامة خلف كل الأسى الذي يعتريها

:

- لا داعي للقلق... أنا بخير.

بالتأكيد إنجي لم تشعر بالإرتياح من كلامها ربما هي حزينة لأن إدوارد علم بأمر برسوبها فغضب منها؟... أو أن السيد وجه لها كلاماً قاسياً؟. هذا ما خطر ببال إنجي في تلك اللحظات.

بعد الدوام، وفي طريق بيانكا إلى المنزل استأذنت من إنجي و استعجلت في العودة، تاركة إياها حائرة مستغربة. ومن الواضح أن هذا التصرف أحزن إنجي كثيراً.

فور وصولها إلى المنزل وقفت السيدة روز حائلاً بينها وبين المدخل مشيرة:  
- لم عدت إلى هنا؟... ألم يطردك ألكسندر حتى الآن؟....

- لا... لم يفعل... ربما لأن هذا المكان هو منزلي أيضاً.. هلا سمحت لي بالدخول؟ .

بيانكا على دراية بأن كلام السيدة يمكن أن يتحقق قريباً جداً... ولا تريد أن تجعل من هذا موضع تفكير . فقامت بتناول الغداء ومن ثم توجهت إلى غرفتها. الهدوء يسري في المكان. استلقت على السرير وهي تفكر في القرار الفاصل المنتظر من ألكسندر .

عاد إدوارد إلى المنزل، أسرعت بيانكا إليه مرتمية على صدره تلف ساعديها على عنقه هاتفئةً بسرور:  
- أهلاً بعودتك يا أخي... اشتقت إليك كثيراً.... إدوارد!!!

- لقد عدت بيانكا... هل شعرت بالوحدة في غيابي يا صغيرتي؟.

- أجل ،بالتأكيد... لا تتركني وحيدة مع تلك المزجة ثانيةً.
- هه لديك لسان سليط، هل قالت لك شيئاً أز عجبك؟.
- نوعاً ما، أخبرتني أن بقائي في هذا المنزل لن يدوم طويلاً...
- لا تعيري كلامها إهتماماً فأنت ستبقين هنا حتماً. هيا اتبعيني..
- رؤية بيانكا لإدوارد أنساها سبب اكتئابها فإبتسامته الفاتنة ينقشع لها الضباب وتأمين لها الروح و الجسد. بينما كان يغير إدوارد ملبسه لمحت بيانكا ندباً على ظهره فسألته ملحة:  
- إدوارد؟ ما سرّ هذه الندبة أخبرني ألا تولمك يا أخي !!
- هاهه هذه.. لا تقلقي. في الحقيقة كان سببها حادث سيارة..
- ماذااا؟ حادث سيارة؟. لا يعقل..
- أجل كان سائق سيارة والدي يقود بتهور حتى اصطدم بشاحنة وانكسر زجاج النافذة التي بجانبني فظهرت هذه الندبة بعد شفاء جرحي.
- ما قاله إدوارد جعل بيانكا تكتشف شيئاً جديداً عنه شخصياً، فنادرأ ما يتحدث عن نفسه أو عن أسراره.  
ظل الإثنان مع بعضهما بيانكا تسأل و إدوارد يجيب بصبر على أسئلتها. إلى أن طرقت الخادمة باب الغرفة مشيرةً : « السيد يطلبكما في مكتبه» ..هذا الخبر فاجأ الشقيقين فماذا يريد منهما السيد هذه المرة؟.

في مكتب السيد ألكسندر كانت هناك روز أيضاً. عند دخول إدوارد وبيانكا وجهت ابتسامة صفراء تدل على الثقة و الإحتقار معاً.

باشر السيد الحديث دون مراوغة :

- لقد حسمت قراري بشأن بقاء بيانكا هنا أو لا لذا لا، أريد أي تعليق منكم.. هل هذا واضح؟...

عبارات ألكسندر الجامدة تركت في نفس بيانكا خوفاً و توتراً شديدين حتى أضاف قائلاً :

- منذ مجيئ بيانكا إلى هذا المنزل و أنا غير مرتاح لأنها تذكرني بجوليا و ماضي القديم، لكنني غيرت رأيي الآن لهذا سأسمح ببقائها هنا على شرط أن تتجح في اختبارها التعويضي و إلا سأنظر في الأمر مرة أخرى.

- هاه!! كيف علم بأمر رسوبي؟!... إدوارد!!!

- أنا من أخبره يا بيانكا.. آسف.. المهم أنك ستبقين هنا معي.

- هذا صحيح.... أنا سعيدة للغاية سنبقى معاً يا إدوارد.. أجل!!!

- لن أسمح بهذا أبدا!! كيف تقول هذا يا ألكسندر؟.. هل أنت جاد حقاً؟!!

- كفى!!! لقد اتخذت قراري ولن أراجع...

- حسن إذاً ، لقد اخترت بقاءها هنا .لا بأس سأغادر هذا المنزل على الفور وسأذهب إلى الفندق ولن تراني بعدها مرة أخرى هل تفهم؟



- افعلي ما تشائين، فأنا أعلم بشأن ذلك الرجل الذي تزورينه سرّاً، لا  
تظني أنك خدعتني فعيناي لم تغفلا لحظة واحدة عن مراقبتك. لقد  
كنت أنوي استدعاء الشرطة إلى هنا لكنني ساعدك ترحلين من هذا  
المنزل بهدوء.

- أبي!! كم أنت رائع..

- سأنتقم منك يا ألكسندر لذا لا تفرح كثيراً. أيها الوغد.

غادرت روز المنزل تجر المهانة و الإذلال بعدما كانت تتمنى أن  
ترى بيانكا في ذاك الموقف. إدوارد كان سعيداً بذهابها لكنه  
استغرب من قرار والده فسأله متعجباً :  
- لماذا وافقت على بقاء بيانكا هنا يا أبي؟.

- ممم!! ألم تكن تنتظر هذا القرار مني ؟.

- حتى أكون صادقاً معك لم أتوقع ذلك منك شخصياً...

- في الحقيقة لقد أعادت هذه الطفلة إبتسامتك الحقيقية يا بني، رأيته  
تبتسم كلما كانت بقربك... ربما هذا ما جعلني أشعر بالخوف منها  
في البداية لكنني متأكد من أنها الشخص الذي سيخرجك من عزلتك  
يا إدوارد.

فغرت بيانكا فاها فرحاً و أسرع تترتمي على السيد ألكسندر تقبله  
بحرارة حتى شعر بالخل ، أما إدوارد فلم يستطع كبح مشاعر  
الفرحة التي اعترت قلبه آنذاك... غير أن في تلك الليلة التي أمست  
فيها بيانكا تتحدث أثناء نومها وتهمس بإسم إدوارد الذي بات  
يلطف وجهها إلى أن غرقت في نوم عميق تحت ضوء القمر  
الساطع من وراء الغيوم النيلية. فيغادر غرفتها مطمئناً ينتظر ما  
يخبؤه المستقبل للطفلة بيانكا. ربما الغد يخفي أسراراً سعيدة أخرى  
لهذين الأخوين.... ولما لا؟؟!!!

\*\*\*\*\*

\*\*\*\*\*

\*\*\*\*\*

في الأيام القليلة المقبلة التي تفصل بيانكا عن موعد الإمتحان  
التعويضي أضحت لا تفارق غرفتها تدرس ليل نهار حتى لا تخيب  
ظن السيد ألكسندر فيها، كونه وافق على بقائها في المنزل. أما  
إدوارد فقد كان يدرسها في وقت فراغه وهذا ما جعل بيانكا عازمة  
على النجاح هذه المرة، فإبتسامة واحدة منه كفيلة بإيقاظ الإصرار  
الذي غط في سبات عميق ،.. في قلب طفلتنا الصّغيرة.

وبين فينة وأخرى تقيم بيانكا جلسة دراسة مع صديقتها إنجي في  
غرفتها. لم يسبق لإنجي أن رأت غرفة بيانكا من قبل لهذا فقد ظلت  
في دهشة لم تستفق منها إلا بعد حين. سحر الغرفة أنساها الهدف  
من هذه الزيارة وهي الدراسة. أما بيانكا لم تشأ مقاطعة تلك الأجواء  
الحياتية التي اعترت إنجي بل فضلت متابعة تحركاتها المضحكة  
في أرجاء المكان بلا توقف.

في هذه الأوقات عزمت بيانكا على النجاح بشتى السبل وهذا ليفخر بها إدوارد أو ربما لتحصل على هدية منه ومن يدري! فمطالب الفتيات لا تنتهي أبداً. في حين قضت معظم الوقت تدرك ما فاتها في فصلها الأول وتعوض ذلك بحل المعضلات وما إن تفقد الأمل في حلها حتى تشعر بتلك الأنامل الناعمة التي تلمس شعرها الحريري فتريح خاطرها أن لا تستسلمي فطريق النجاح محفوف بالمخاطر... تلك يد إدوارد التي لم تستغني عن بيانكا لحظة واحدة. حتى في بعض الأحيان تنسى طفلتنا تناول الغداء أو العشاء من كثرة جلوسها على كرسي مكتبها فبالها مشغول بنتائج الإمتحان لولا أن أخيها بجانبها يحرص على صحتها و راحتها. فهل ستبلي حسناً في هذا الاختبار؟ هذا ما ستخبرنا به الأيام القادمة.

الإمتحان بعد يومين ، شعرت بيانكا بهاجس الخوف وانتابها توتر شديد خالته ما أصابها قبل العرض الأول لها في صف الفنون ، نفس الإحساس و الموقف ذاته ..فقط القليل من الهمة للوصول إلى القمة. فباب النجاح لا يفتح إلا بالمفتاح... ويلزم بيانكا أن تعثر على ذات المفتاح.

وتمر الأيام واللحظات القاسية ولكن الأمل هو ما يجعلنا نستمر حتى النهاية. و يبقى إدوارد ينتظر وصول بيانكا بفارغ الصبر حتى أنه تغيب عن الشركة من أجلها. إلى أن سمع مناداتها له من حديقة المنزل فصاحت:

- إدوارد!!!!...هل تصدق لقد نجحت.. نجحت يا أخي... هههه!!

- مبارك لك يا عزيزتي فأنت تستحقين هذا النجاح بكل جدارة.

- شكرااا هذا بفضلك، لقد بقيت إلى جانبي و لم تتخلي عني، أنا أحبك!.

أجل لقد زفت بيانكا الفرحة في المنزل، لقد اجتهدت و واضبت في الدراسة فالأيام تشهد و لا تنسى، بل وإنها ذكرى تبقى في القلوب لترقى.

كان ألكسندر على دراية بنجاح بيانكا وكما عهدناه لم يستغني عن إلقاء محاضرة عليها إذ أشار بقوله:  
- لقد أحسنت عملاً أيتها الصغيرة، وليكن في علمك أن فتاةً تسكن هنا عليها أن تبدي صورة حسنة عن عائلتنا هل تفهمين هذا؟!!!.

- أجل سيدي..... يا إلهي ظننته سيمدحني قليلاً لكنه لا يأبه إلا بتقاليد هذه العائلة.....رجل بليد...

أخيراً سترتاح بيانكا بعد هذه الأوقات العصبية التي اجتازتها بالإرادة القوية و التصميم. و لهذا فقد اقترح عليها إدوارد رحلة إلى الجبال للتزلج في منزل العائلة وكانت هذه أروع هدية تنالها بيانكا.

حان وقت الرحلة أخيراً، حزمت بيانكا أمتعتها في حقيبتها اللطيفة الصغيرة و وجدت إدوارد بانتظارها أمام السيارة و فصاحت:  
- أسفة لتأخري عليك يا أخي... هذه حقيبتتي.

- أهذا كل ما ستأخذين معك يا صغيرتي؟

- أجل.. أخي!!!..هه..هلا وضعتها في السيارة؟ إنها.. ثقيلة!..

- حسنا هاتها. و اصعدي.

- سأفعل.... أنا سعيدة جداً. حسناً.... آوه؟ ماذا تفعل هنا يا سيد ألكسندر؟

- سأرافقكما في هذه الرحلة ألم يخبرك إدوارد بهذا؟

خابت آمال بيانكا بعد إدراكها أن هذه الرحلة لن تمر مرور الكرام عليها بوجود السيد ألكسندر . وتنطلق السيارة فأهلاً بالرحلة.!!!

على جوانب الطريق الأبيض اصطففت عروس الأشجار تودع بيانكا راجية لها وقتاً ممتعاً و أهدتها الرياح رسالة منمّقة بجُمان الثلوج فتنتثر بريقها وترحل. فخطر ببال بيانكا أن تفصح لها عن وجهتها فسألت إدوارد :

- أخي !!! ما اسم الجبال التي سنذهب إليها؟

- حسناً.. إنها تدعى جبال نايس جوان.

- نايس جوان؟! ولم سميت بهذا الاسم؟

- ممم.. لقد تبادل سكان الجبل حكاية عن أن كل خمس سنوات تستيقظ زهرة جوان من طلوع الفجر إلى منتصف الليل و عندما يصبح القمر مكتملاً تختفي. ومن يقطفها يحيا في سعادة أبدية.

امتعض ألكسندر معلقاً:

- لم أكن أعلم أنك تصدق مثل هذه الترهات يا إدوارد.

- من قال إنني أصدقها.!!! و الآن يا بيانكا هل أنت متشوقة للبحث عن تلك الزهرة؟

- أجل بكل تأكيد.... أيتها الرياح!!!! يا عروس الأشجار!! سأذهب إلى جبال نايس جوان تمنى لي حظاً طيباً... وداعاً... وداعاً!!

بعد ساعة ونصف، وصل الجميع إلى المنزل فقام الخدم بتحيةة ألكسندر وأودعوا أمتعتهم في الغرف. ما أدهش بيانكا طراز المنزل القديم فعلى الجدار الرئيسي تدلى رأس غزال و أمامه ثبتت بندقية صيد تعود لزمان أكل عليه الدهر وشرب. إلى أن أفاقها إدوارد من دهشتها قائلاً:

- ألا تريدان استطلاع المكان يا أختي؟ ما رأيك؟.

- أنا موافقة.... لكن لا تسهو عني فأنا أجهل معالم هذه القرية.

- لا داعي للقلق سأربط ساقيك بساقي.

- هااه حتى يخالنا الجميع سجناء! أنا أرفض هذا..

- كنت أمزح معك فقط... هيا بنا..

القرية صغيرة جداً فشئان بينها وبين العاصمة لندن، أكواخ لطيفة وصغيرة و بنات الجبل ترقصن على سمفونية رياح الصقيع. اعترت بيانكا عواطف جياشة وأحاسيس مرهفة لتلك الطبيعة النادرة و الأسطورية. و بين هنيهة وأخرى تقفز بيانكا على بساط الثلج فتغمس قدميها ملوحة بأناملها لإدوارد...

و تُرَبَّتْ ظلال الشمس على كتفيها و قد همست في أسماعها لغز الشتاء في قضية الجبل تحت أدلة تدين زهرة الجوان، فتكشف سرّها الأزلي حتى إذا استفاقت الزهرة كُبلت بأصفاد بني الإنسان تحت حكم الضمير فإن أنبك ضميرك فستدعها وشأنها وإن غافلتك حَمِيَّتُكَ لقطفها فستطفئ نورها الأخير و تخمد. لِمَ لَمْ نرجح سبات الزهرة لجزعها من قبضة الإنسان! فكما نحن في صراع مع أبناء جنسنا ترانا كيف هي الحال إن كانت زهرة صغيرة ودودة تهزها رياح الشمال والجنوب وتتنازع مع المتناوحة حتى إذا حل المساء تعاركت مع الحرجف أو الصرصر، حتى بيانكا تعترئها الحماسة و التشويق لمقابلة سيدة الأزهار.

بعد اكتشاف القرية و الإعتياد على المكان رافق السيد ألكسندر إدوارد إلى الجبل للتزلج بينما تركت بيانكا تحت مراقبة الخادمة إلا أنها وجدت فرصة للهرب فلحقت بإدوارد قبل أن يبتعد و يختفي ظله و لا نخفي توبيخه لها كون أن معالم الجبل و طرقاته جد خطيرة على طفلة صغيرة.

وتعلو على محيا بيانكا دهشة يضيق لها الصدر من هول الجبال حتى الشمس بدت أصغر بكثير وكأنها تحتمي خلفها، و يشد النظر كسوة ألقها الروابي كعروس أمام جمع غفير من المتزلجين الشبان ارتسمت البسمة على شفاههم فتهرع بيانكا للقمة تنادي على إدوارد مرات عديدة و تصيح بنفس منقطع:

- أسرع يا إدوارد قبل أن تنطفئ حماستي هيا!! !!

- على رسلك ، ارتدي عدّتك أولا ...حسناً، انطلق يا صغيرتي...  
كوني حذرة!!!.

انطلقت بيانكا تسابق الرياح فيصيح المتزلجون ”هووووي“  
السعادة عكست ذلك الجو البهيج.

في المساء، إلتمت العائلة حول المائدة و كالعادة لا يسمع إلا صوت بيانكا فهي تأكل ،تروي ما جرى، وتضحك ما ترك السيد ألكسندر يوبخها و يلقي محاضرة عليها أما إدوارد فظل يضحك ساخرًا منها

وقبل النوم جلست بيانكا على حجر أخيها لتلقي ابتسامة خفيفة وتهمس مردفة:

- أخي شكراً لك، لقد استمتعت كثيراً بهذه الرحلة... أنا أحبك!!

- أممم... لا داعي لأن تشكريني فهذا واجبي يا حلوتي الصغيرة. .. والآن لقد تأخر الوقت فلتخلدي للنوم هيا!!!!!!

- لا ترحل!!! إدوارد ابق معي حتى أنام..

- لك ذلك، فلتنامي فقط.

من الرائع أن تسعد روحاً صغيرة و تبهج قلبها الرقيق فتغدو ذكرى يطيب لها خاطر و يزدان لها الوجدان، عندما تشبثت يد بيانكا بقميص إدوارد ترجمت الاشتياق إلى حب و حنين فتطلق العنان لوصول أبديّ ، في الحقيقة إن شخصية إدوارد العنيفة و العصبية قد جعلت منه رجلاً له نفوذ واسع، يهابه الجميع ولكن أمام شخصية بيانكا اللطيفة و البريئة فقد احتجب ذلك الجانب المظلم من سجيته . ربما تخبئ لهما الأيام القادمة حقيقة مفقودة منذ أمد بعيد.

\*\*\*\*\*

\*\*\*\*\*



في اليوم الثاني للرحلة، استيقظت بيانكا على أنغام العصافير التي عزفت لحن الشروق تهدي الوري تحية بلغة الثلوج. توجّهت إلى غرفة إدوارد، فكان لا يزال نائماً فسألت نفسها: «هذا ليس عدلاً يا أخي العصافير قامت بتحيتي و أنت لا تزال نائماً!». «و دون تردد دنت من سريره و نزعت الغطاء من على وجهه لكن ما أفزعها أنه كان مستيقظاً، حاولت الفرار غير أن معصمها كان في قبضة يده. فقام و عدّل جلسته متنهداً ثم أردف قائلاً:

- ماذا تريدان هذه المرة؟

- لا شيء.. فقط أردت أن أتحدّث معك قليلاً.. هل تأذن لي؟.

- و هل يمكنني الرفض هههه، تفضلي فكلي آذان صاغية.

- إدوارد لقد رأيت أُمي في المنام، كانت جميلةً جداً و قامت بإهدائي زهرة بنفسجية وقالت: عليك المحافظة عليها يا بيانكا. ثم استفتت.

- حقاً عزيزتي... ربما كنت تفكرين في زهرة الجبل كثيراً فهذا معقول .

- ربما.. إدوارد؟ اشتقت إلى أُمي، أتمنى أن أراها ولو لمرة واحدة فقط.

امتقع وجه إدوارد لحظة، هذا صحيح فهي لا تزال طفلة لم تبلغ الثانية عشر بعد وفقدت والدتها في وقت هي بأمرّ الحاجة إليها لتكون بقربها هذا ما خطر على باله « أفهمك يا صغيرتي.... أفهمك».

نظر إليها ملياً، كانت جادة في طلبها أو بالأحرى أمنيتها الوحيدة فلم يشأ أن يجعلها تشعر بالوحدة حتى أهداها قبلة خفيفة على خدها و وجه إليها كلمات رقيقة بصوته البهي:

- لا تريني هذا الوجه ثانية، فحتى لو لم تكن والدتك بقربك فأنا بجانبك دائماً... إذا شعرت بالضيق تعالي إليّ و حدثيني. هل ستفعلين بيانكا؟

- أكيد... أنا آسفة يا أخي! لا أريد أن تبعدني عنك كما فعلت والدتي. لا أريد أن أفقدك كما فقدت والدتي.

كانت عواطف بيانكا في حالة فوضى لم يجد لها إدوارد تفسيراً ربما ذلك الحلم لم يكن سعيداً بل كان يخفي صدمة كبيرة لكليهما.

بعد أن هدأت بيانكا إستأذنت من إدوارد بالخروج للعب فسمح لها قائلاً:  
- لا تبتردي عن المنزل حتى لا تضيعي.

- حسناً شكراً لك يا أخي لن أتأخر.

توجهت بيانكا نحو مكان التزلج لم يكن المكان يعج بالناس سوى بعض الأطفال و المراهقين. فوق نظرها على طفلة لطيفة بمثل عمرها شعرها أشقر و عيناها خضراوتان كانت تبدو كنيبة ولا يظهر عليها الإستمتاع بجمال الثلج و بهائه. فدنّت منها بيانكا وقامت بسؤالها:

- لا تبدين بخير. هل أنت ضائعة؟

- أجل، افترقت عن والدي بينما كنت أتزلج أرجوكم ساعديني، ادعى نانا.

- لا بأس. و أنا إسمي بيانكا تشرفت بمعرفتك. هل تأتين معي إلى منزلي إنه كبير جداً و سيساعدك أخي بكل تأكيد.

لم تكن بيانكا على دراية بالذي سيحدث عما قريب. فاصطحبت معها نانا إلى المنزل و عرفتھا على إدوارد الذي لم يتردد في مساعدتها فقال :

- لا داعي للقلق يا صغيرتي يمكنك البقاء هنا ريثما نعثر على والدك.

كانت بيانكا سعيدة لموافقة إدوارد على مساعدتها لكن شيء ما كان يزعجها و لم تدر ما هو إلى أن طلبت من نانا اللعب معها قائلةً :

- لنلعب معاً يا نانا هل توافقين؟

- أ أسفة لكنني أريد البقاء مع السيد إدوارد. أعذريني سنلعب معاً لاحقاً.

أجل.. هذا ما أزعج بيانكا. إن نانا تتصرف بغرابة مع إدوارد و كأنها معجبة به هذا ما كانت تظنه بيانكا فحاولت إبعادها عنه بكل الوسائل لكنها كانت تتشبث به كلما دعتها للخروج معها أو حتى سؤالها ما تركها تدخل في هيستيريا من الغضب.

لما حان وقت الغداء أخذت نانا مقعد بيانكا بجوار إدوارد فقامت بمناجاته قائلةً :

- إدوارد أريد الجلوس بجانبك يا أخي!

- بيانكا كفى!! لا تزعجي ضيفتنا هيا إجلسي وتناولي غداءك.

- أسفة يا بيانكا سأستعيره منك لذا لا تغضبي مني موافقة؟!!!

نانا كانت فتاة مستفزة لكنها تعاملت مع الشخص الخطأ فبعد عبارتها تلك دنت منها بيانكا و وجّهت لها صفة قوية أجهشت بالبكاء على إثرها و ما زاد الطين بلّة أن إدوارد قام بضمها و ألقى بنظرات اللوم على بيانكا فقال ممتعضاً:

- لن تخرجي من المنزل اليوم أبداً، بعد أن تتناولتي غداءك اذهبي إلى غرفتك حالاً. هل فهمت ما أقوله يا بيانكا؟!.

بعد كلام إدوارد الذي اعتبرته بيانكا قاسياً أبت تناول الغداء و صعدت إلى غرفتها فاستلقت على السرير و الدموع تنهاطل على وسادتها لم تنتظر رده المشين ذاك، قد خاب أملها كثيراً.

قررت الخروج من المنزل، و لدن تسللها من الباب الخلفي ألقت نظرة على إدوارد. كان منصتاً لحديث نانا بينما هي تقضم أصابعها من الغيظ فهرعت إلى الخارج لا تدري أين وجهتها، اصطدمت بالكثيرين وباتت تعتذر منهم إلى أن تعثرت بغصن شجرة . و على مرأى من ناظريها كانت الطريق نحو الجبل تناديها، الضباب الكثيف حجب عنها الرؤية و في أحيان كثيرة توشك على السقوط من المنحدر ،الخوف يعتري قلبها الصغير و خيال صوت الرياح يصرخ في وجهها منعناً إياها: " أنت فتاة سيئة!... أنت حقيرة! ". تلك الصيحات حطمت قلب بيانكا و سارعت نحو القمة للخروج من تلك الأزمة.

عند نهاية الطريق ارتسمت لوحة فنية من شعاع الشمس الذي عكس صورة الجبل العظيم و ما لم تكن تنتظره بيانكا هو عثورها على زهرة جوان تتدلى من صخرة أسفل القمة بقليل و العجيب في الأمر أن الزهرة التي قدمتها لها والدتها في ذلك الحلم هي نفس الزهرة التي أمامها الآن فتذكرت قول إدوارد لها في السيارة: «من يقطفها يحيا في سعادة أبدية..».

وهنا راودها إحساس غريب إذا قطفتها سأكون سعيدة مع أخي إلى الأبد؟ هكذا كانت تفكر فحاولت الوصول إليها، مدّت يدها نحوها لكنها لم تستطع لمسها ثم أعادت المحاولة مرات ومرات حتى انزلقت يدها من على الجرف لولا أن يداً حنونة لم تفلتها لكانت في عداد الأموات، إنها يد إدوارد ، قام بسحبها للأعلى و ضمها إليه دون أن يردف بكلمة ، شعرت بنبضات قلبه كانت تتضارب بسرعة، فأدركت أنه كان يركض بحثاً عنها وذراعه الملتفة حول خصرها كانت ترتعش أحست بيانكا بكل هذا فرفعت رأسها و صاحت :

- أنا أحبك يا أخي! آسفة لأنني أفلقتك عليّ أرجوك سامحني...

لم يرد إدوارد عليها بل ظل ساكناً، ثم شرعت بالبكاء ولّفت ساعديها حول عنقه كانت تردد بصوت خافت:

- لا تتركني.. لا تتركني.

ندرك تماماً أن ليس من طبع إدوارد التخلي عن بيانكا حتى ولو كانت مخطئة فمسح بيده على شعرها و رتبّ خصلاته المنسدلة على جبينها مردفاً :

- خشيت أن تصابي بمكروه يا صغيرتي لم عصيتِ أمري و خرجت ؟.

- هذا لأنني أريدك أن تكون لطيفاً معي فقط! لقد تركتني لوحدي و بقيت إلى جانب تلك الحقيبة أنا أكرهها!!...أكرهها!!!.

- أنا آسفة هل شعرت بالوحدة ؟.

- أجل، لهذا أتيت إلى هنا حتى أجد زهرة الجبل فهي ستحقق السعادة لمن يقطفها أردتك أن تكون لي فقط يا أخي... لكنني لم أستطع قطفها.

- بيانكا انظري الزهرة معي. أمسكت بها عندما سحبتك.

لم تصدق بيانكا أن الزهرة بين يديها، الزهرة التي أهدتها لها والدتها غير أن إدوارد أفصح قائلاً:

- السعادة ليست في الزهرة يا عزيزتي إنما في الشخص الذي يقطفها ألم تشعرني بالسعادة عندما رأيت هذا المنظر الأخاذ؟ هذه الزهرة هي كنز هذا الجبل و لابد أن نعيدها إلى مكانها الأصلي كما يجب عليك العودة أنت أيضاً إلى منزلك. أليس كذلك؟.

- لا! لن أعود و تلك اللعينة هناك سأبقى هنا معك حتى لن تجدنا.

- سيد إدوارد!! سيد إدوارد! لقد عثرت عليه..

- نانا؟! كيف علمت بمكاننا؟ إدوارد لا تقل لي....؟

غمغم مرأوغاً:

- آوه، في الحقيقة لقد خرجنا جميعاً للبحث عنك... وال... انتظري!!

- هيا ابتعدي عن أخي!!!.

لم تسلم بيانكا من نانا حتى و هي على قمة الجبل و عند العودة قام إدوارد بحملها طول الطريق عقوبة له كونه جعلها تشعر بالوحدة .

و بعد فترة وجيزة عثرت نانا على والدها و رحلت من المنزل فقام إدوارد و حمل بيانكا بين ذراعيه تعلو وجهه ضحكة ساخرة سائلاً إياها بتودد:

- تبدين سعيدة لرحيل نانا هيّا صارحين القول أيتها الشقيّة....

أجابت بيانكا بابتسامة واثقة :

- هذا مؤكد فأنت لي أنا فقط...هه.

و بعد تناول العشاء شعرت بالإرهاق الشديد فما مرّت به اليوم جعلها تدرك حبّها العميق لإدوارد و أنها لا تقدر على فراقه أبداً كونها تعتبره أباً لها بل أكثر من ذلك.

في الصباح..... شدت العائلة الرحال للعودة إلى المدينة فودعت بيانكا الجبل و الحزن لم يفارق عينيها فأهمست قائلة:  
- وداعاً يا صديقتي جوان لن أنساكِ أبداً إعتني بالسيد جبل و لا تتركيه وحيداً... إلى اللقاء!!!... إلى اللقاء!!!.

ابتعدت السيارة عن القرية حتى لا تكاد تلمحها خلف الجبال كأنها حلم عابر لم تستيقظ منه بيانكا بعد ليبقى مجرد ذكرى خطّت في ذاكرتها.  
حتى قالت بإلحاح شديد مسندة يديها الناعمتين على فخذ إدوارد قائلةً :  
- هل سنزور الجبل مرة أخرى؟.

مسح إدورد على شعرها و استطرد كلامه بابتسامة هادئة ومرتزة قائلاً:  
- ولما لا يا صغيرتي لكن عليك الإنتظار حتى الشتاء القادم. أنت موافقة؟.

- حسناً.. سأنتظر ذلك بفارغ الصبر يا إدوارد... أنا أحب الرحلات كثيراً!!!.

كان الجو بارداً جداً فنافذة السيارة التي بجانب بيانكا كانت مشقوقة،  
يذاها كانتا ترتجفان و القشعريرة انتابت جسمها لا تسمع إلا أسنانها  
وهي تصطك، ألقت بنظرة طفيفة على إدوارد الذي كان مشدوهاً بما  
يراه خلف النافذة و دنت منه ببطء حتى رفعت ذراعه فاحتمت  
بدفء ساعديه و ألقت برأسها على صدره وعلى محيّا نظرة  
استغراب، فلم يلبث قائماً حتى سألها متعجباً :  
- ماذا بك يا بيانكا؟ لماذا تتشبّثين بي هكذا؟ هل تشعرين بشيء؟!...

- هااه!!... أنا فقط أشعر بالبرد.. أزعجتك؟..

- آ لا.. لم أقصد ذلك على الرحب و السعة ..

طريق العودة كانت طويلة جداً و مملة و رؤية المدينة تشرق من  
بعيد أعاد إلى بيانكا حيويتها المعتادة و اشتياقها للمنزل.  
فهل ستجد مغامرة أخرى بانتظارها؟ هذا ما ستفصح به الأيام  
القادمة...

\*\*\*\*\*

\*\*\*\*\*

\*\*\*\*\*



السبت .. التاسع من شباط...

استيقظت بيانكا على صوت إدوارد . كان يناديها مراراً وتكراراً ... لاحظت وجوده أمامها لكنها لم تكن حيوية كالمعتاد فبيانكا عندما تقع عيناها على إدوارد لا تلبث حتى ترتمي عليه كالقطة غير أن هذه المرة ظلت في فراشها تهمس بصوت خافت:  
- أخي ... صباح .. الخير.

ما ترك إدوارد يستفسر عن تصرفها حتى إذا لامست يده ناصيتها اتسعت حدقتا عينيه و علت ملامحه نظرة بائسة... لقد كانت بيانكا محمومة.. أجفانها كانت وردية كالطوى و بريق عينيها يلمع كلما سقطت أشعة شمس الصباح عليهما.  
فقامت وعدّلت جلستها ثم دنت من إدوارد و لفّت ساعديها حول خصره و أردفت مشيرة:  
- لا أشعر أنني بخير يا أخي.. ماذا أصابني؟.

رفع ذقنها و أجاب بابتسامة هادئة :  
- لا داعي للقلق يا حلوتي الصغيرة أنت محمومة فقط ويجب عليك أن ترتاحي الآن.. سأحضر لك فطورك إلى هنا .. إتفقنا؟!

قاطعت بيانكا حديثه و الحزن يعتري عينيها صائحة:  
- لكنني أريد تناول الفطور معك يا أخي أرجوك دعني أنهض!

- لا ! ستبقين هنا ، و سأحضر لك الفطور وإياكي و مغادرة الغرفة مفهوم؟.

شعرت ببانكا أنها مقيدة ، فاستلقت على السرير و لفّت البطانية حول نفسها ، كان اليأس ما يسيطر على قلب الصغيرة إلى أن سمعت مقبض الباب يفتح. لم تشأ أن تنتظر حتى ترددّ على مسامعها كلام أربكها:

- طعامي سيبرد... أيرضيك أن أتناوله بارداً أيتها المدللة؟.

أحضر إدوارد فطوره أيضا حتى يتناوله مع ببانكا و رؤيتها له رسم ابتسامة عريضة على شفتيها فأجابت بحماسة شديدة :

- أشعر أن شهيتي مفتوحة لهذا اليوم.. لن أدع الحمى تمنعني من تناول الفطور معك يا إدوارد....يا سلااا!!!.

و بينما كان الأخوان يتبادلان أطراف الحديث طرقت إيما الباب مردفةً:

- السيد ألكسندر يطلبك في غرفته يا سيدي!.

- أخبريه أنني قادم حالا... أختي سأدعك الآن ترتاحين.. عديني أن لا تجهدي نفسك حتى تشفي هيا!..

- أنا أعدك يا أخي.. لا تقلق عليّ.

لم يكن ببال إدوارد أية فكرة عن سبب دعوة والده له لكنه يعلم أن الأمر طارئ حتى يقوم بطلبه، فاتجه نحو مكتبه و قام فطرق الباب حتى أذن له بالدخول فجلس بمواجهته إلى أن تقابلت عينا السيدان فباشر الوالد كلامه مستطرداً :

- أنت تعلم أن شركتنا صارت تواجه اقتصاد العالم و باتت تشارك في كثير من المؤتمرات و اليوم دعيت إلى جلسة مفتوحة مع الشركة الكندية للبناء حتى نقوي الشراكة التي بيننا و أنت من سيحل مكانني في هذه الجلسة فكن مستعداً الموعد بعد الظهر.

- لكن شقيقتي مصابة بالحمى و يجب عليّ البقاء إلى جانبها.. ألا يمكنك تأجيل هذه الجلسة لوقت لاحق يا أبي!!!.  
قطّب ألكسندر جبينه و قال بصوت حاد :  
- لقد انتظرت هذه الجلسة منذ سنوات و أنت تريدني أن أؤجلها لوقت آخر.. ستذهب كما اتفقنا هل هذا واضح يا إدوارد؟.. و بخصوص تلك الصغيرة فستسهر رئيسة الخدم على راحتها.... هذا كل شيء.

غادر السيد الغرفة تاركًا إدوارد يتصارع مع نفسه لكنه يدرك أن كلام والده لابد أن يطبق. ارتدى بدلته الرسمية و تسلل إلى الخارج حتى لا تلحق به بيانكا أملا أن لا تكتشف غيابه عن المنزل.

أثناء الغذاء أخذت إيما الطعام إلى غرفة بيانكا، كانت تنتظر من على سريرها إلى عصفورين قرب الشرفة الأول كان عصفوراً ناضجاً و الآخر كان لا يزال يترنح في خطواته حتى إذا تعثر فتح الأول جناحيه و طار وبقي الثاني يرقب عودته لكنه ذهب من غير رجعة. فلما لمحت الخادمة و بيدها سينية الطعام ألقت بنظرة ثاقبة عليها مستفسرة بكلامها:

- اعتدت على أن يحضر لي أخي الغذاء.. فلماذا لم يأتي هذه المرة يا ترى؟ هل تعلمين!

سرى التوتر في جسد الخادمة إيما فأجابتها و هي تتلعثم الكلام:  
- أأظن أنه متعب لا غير لا تقلقي.. هيا هيا عليك بتناول الغذاء قبل أن يبرد.

حلّ صمت رهيب من قبل بيانكا ثم همست مرردة:  
- لا .. لن أكل إلا مع أخي !! أخبريني أين هو هيا أجيبني!.

أشفقت عليها إيما كثيراً حتى أفصحت لها بما تعرفه :

- إسمعيني يا بيانكا السيد إدورد لديه مقابلة هامة في الشركة ولا يستطيع العودة باكراً اليوم.. تفهمي موقفه أرجوك... أنت تعلمين أنه يحبك كثيراً ولا يريدك أن تكوني حزينة.. حسناً؟!!!  
لم تكذب بيانكا تستوعب كلام إيما فسألتها:  
- و أين تقع الشركة التي يعمل بها أخي يا إيما؟.. هل هي بعيدة جداً حتى لا يستطيع العودة باكراً؟.

- لا إنها في قلب العاصمة و هي شامخة جداً وجميلة..

أعادت بيانكا سؤالها بإلحاح شديد :  
- هل ستأخذيني إليها يا إيما أرجوك!.

دهشت إيما من طلب بيانكا فأجابت بنظرات جادة :  
- لا ! لا يمكنني.. آسفة.

و لشخصية الطفلة العنيدة فقد استطاعت إقناع إيما بكلامها و تصرفاتها البريئة لكنها أربكتها بكلامها إذ قالت:  
- سأخذك إلى أخيك لكن ليكن في علمك لو أن أحداً ما اكتشف ما سنقوم به فسأطرد من عملي..  
فتريح خاطرها بيانكا بكلماتها العنفوانية:  
- لا تقلقي لا تقلقي لن أخبر أحداً.

فتسللت الفتاتان إلى الخارج و عبرتا البوابة. العالم الخارجي كان أعمق مما كانت تظنه بيانكا. فاستقلتا الحافلة و اتجهتا إلى قلب العاصمة، البنايات الشاهقة و الأضواء المنيرة و كذا أصوات السيارات إنها العاصمة حقاً. لقد تذكرت بيانكا نزعتها مع بياتريس و إنجي و مغامرتها التي كانت أن تودي بحياتها. روت كل هذا لإيما فهي صديقتها الوحيدة في ذلك المنزل تثق بها و تحبها كونها تحميها وتساندها. عندما وصلتا قامتا فأخذتا نفساً عميقاً ثم همّتا بالذهاب و بعد سير طويل صارت الشركة أمامهما، بيانكا كانت مشدوهة بما تراه عيناها فتبادلت النظرات و إيما ثم اقتحمتا الباب الرئيسي و لدن مكتب الإستقبال سألت إيما العامل قائلة:

- هل أنهى السيد إدورد مقابله لنهار اليوم؟..

العامل كان مستغرباً منهما فأجاب :

- لا ليس بعد لكن يمكنكما الإنتظار هنا إن أحببتما.

- شكراً جزيلاً لك يا سيدي... بيانكا لنتنظر حتى تنتهي المقابلة.

كانت الطفلة ترقب الداخل والخارج و شوقها أن ترى إدوارد يخرج من باب المصعد، أصوات العاملين بثّت النشاط في المكان و المارين يتهايمسون بنظرات استغراب:

- من تكون هذه الصغيرة اللطيفة؟.. ما الذي تفعله هنا؟! .

غير أن إيما كانت تطمئن قلبها بكلمات حنونة فتدفع:

- لا داعي للقلق سيخرج السيد إدوارد قريباً..

قامت بيانكا بطرح عليها سؤالاً غريباً :

- كيف صرت تعملين في منزل السيد ألكسندر يا إيما؟ .

طأطأت إيما برأسها و أجابت الصغيرة بكل صدق:

- لم أكن أنوي العمل في حياتي أبداً، كنت فتاة في التاسعة أعيش بلا مأوى و أجوب الشوارع فأنقب عن لقمة أحيا بها تسد رمقي. لم أعرف معنى السلام إطلاقاً، إلى أن بلغت الرابعة عشر فاشتغلت في بيع الأرغفة لكنني كنت عرضة للإعتداء فتوقفت عن العمل. ثم صرت في العشرين من العمر وأتى شخص لخطبتي فوافقت غير أن ذات يوم اكتشفت أنه ينوي بيعي في سوق للدعارة فهربت إلى مدينة لندن، كانت أكبر مما كنت أظنه وتنت مراراً كثيرة حتى قابلت السيد إدوارد كان في الثانية عشر، لقد أنقذني بجعلي أعمل في منزله و لم يكن يعاملني باحتقار كوني مجرد خادمة بل كان لطيفاً معي إلا أن السيد ألكسندر لم يُكِنَّ أية مشاعر لمن يخدمونه إنه جامد كالصخر.

كانت بيانكا تلح عليها بالأسئلة و إيما تجيب بصبر :

- إيما كم مضى على وجودك في منزل إدوارد؟ .

- آه حسناً أظن أنها ست سنوات...لكن أتعلمين! كانت من أجمل لحظات عمري. بيانكا سأقول لك شيئاً لا تستعربي منه...  
احتارت بيانكا من خطب إيما فأردفت:  
- و ما هو ؟ أنا منصتة لك تماماً..

- والدتك السيدة جوليا كانت تزور المنزل في كثير من الأحيان و كنت بين ذراعيها كوردة بيضاء لقد أتت لتطمئن على إدوارد لكن السيد ألكسندر كان يصد الباب في وجهها و لهذا السيد الصغير، لم يتذكر ملامح والدته، فكانت تقص عليّ مرارة الألم والحزن على فقدان ابنها و كنت أنت تمسحين بيدك الصغيرة على خدّها كلما أظهرت ألماً في عينيها، عليك أن تفخري بوالدتك يا صغيرتي فهي امرأة شجاعة و صامدة وأرى أنك اكتسبت هاتين الصفتين منها على ما أعتقد.

- هذا مؤكد أجل أجل! هاه لقد أتى أخي..... أخي!!.

لم يصدق إدوارد ما تراه عيناه فهو لم يخطر بباله أن تلحق به بيانكا حتى و هو في العاصمة فقام وضمّها إليه و أردف قائلاً :  
- لم أتيت يا بيانكا؟ لقد وعدتني أن لا تجهدي نفسك حتى تشفي أنسيت ذلك؟..

بقيت بيانكا تحدّق به ثم صاحت:  
- لم أخلف بوعدى أبداً لقد أتيت إلى هنا بعدما شعرت بالتحسن أنظر لقد زالت الحمى تماماً...

تدخلت إيما بقولها:  
- آسفة يا سيدي لكنني لم أستطع رفض طلبها بالمجيء وأتمنى أن تجعل هذا الأمر سراً بيننا ...  
- لا داعي للقلق وأنا أشكرك لأنك اعتنيتي بأختي أعلم أن تصرفاتها الطفولية تجعلك لا ترفضين لها طلباً أليس كذلك أيتها الشقية؟  
قطبت بيانكا جبينها و همست:  
- أنا لست شقية أبداً..

تقدّم أحد الممّولين من إدوارد و سأله متعجباً :  
- من تكون هذه الصغيرة الجميلة يا سيد يوهان؟.

- أوه سيد كارل ، إنها شقيقتي الصغرى بيانكا.. ألقى التحية يا صغيرتي..

- سررت بلقائك يا سيدي أتمنى أن تعتني بأخي المتهور جيداً..

ردّ السيد كارل و قد علت البسمة شفتيه:  
- لا تقلقي فأخوك رجل عظيم أليس كذلك أيها الأخ المتهور؟.

- شكراً لك يا سيدي.... فهمس في نفسه مستنكراً: آه منك يا بيانكا!

لم يلبث الجميع يتبادل أطراف الحديث حتى سُمع صراخ بيانكا قائلة:

- دعني أيها الوغد دعني!! ...أنقذني يا أخي!

كان هناك شاب قد حملها بين ذراعيه مستطرداً:

- من هذه الحلوة اللطيفة؟ كم هي صغيرة و ناعمة !! .

بدا أنه طرف في تلك المقابلة شعره مصفف بعناية و بنيته الهزيلة تركت بيانكا تخاله عارض أزياء، صاح إدوارد بنظرته الحادة و الجادة حتى بثت في قلب بيانكا الخوف و الجزع، فأشار عليه بقوله :  
- دعها و شأنها يا كلاوس ألا تخجل من نفسك؟

- لا تسئ فهمي يا صديقي لقد حملتها فقط أليس كذلك؟

- أتركني دعني وشأني أيها الشرير!!...

- هااه حسناً حسناً ...يا لك من فتاة مزعجة.

هرعت بيانكا إلى إدوارد، كانت قدماها ترتجفان خوفاً فهذا من روعها قائلاً:

- لا داعي للقلق يا عزيزتي سأحميك هيّا اهدئي.. كلاوس ! إذا اقتربت من شقيقتي ثانية فلن أتساهل معك أبداً.

- لا تمزح معي هل أنت جاد؟.....

فتوجه إليه إدوارد بنظرات ثاقبة حتى تلاقت عيناها فهمس:

- و هل أبدو لك أنني أمزح؟ . . . لنغادر يا بيانكا هيا.



مغامرة اليوم ذكرى لا يمكن أن تنساها بيانكا . في الطريق كانت السيارة متجهة نحو المنزل فسألت بيانكا إدوارد:  
- هل ذاك الشاب صديقك يا أخي؟  
فنظر إليها ملياً ثم أجابها بابتسامة مشرقة:  
- من يؤذي صغیرتي اللطيفة ليس صديقي.

كانت تتابع إيما في صمت ما يدور بين بيانكا و إدوارد و أملها أن يبقى هذين الأخوين سعيدين مدى الحياة.  
و عند وصولهم إلى المنزل وجدوا السيد ألكسندر بانتظارهم أمام المدخل فعدّل من وقفته و بادر الكلام :  
- أظن أنكم قضيتم وقتاً ممتعاً أليس كذلك يا رئيسة الخدم؟  
- عذراً يا سيدي سأقبل أي عقاب تصدره في حقي...

قاطعت بيانكا حديثهما قائلة:  
- أنا من طلبت منها مرافقتي لذا أنا من عليها أن تعاقب أرجوك لا تطردها.

ظل السيد يحدق ببيانكا ثم استدرّك كلامه قائلاً:  
- هل أنت جادة في كلامك؟

فأجابت بثقة كبيرة:  
- أجل أنا جادة...

أفصح السيد قائلاً:  
- يا لك من فتاة مملة... إيما عودي لعملك في الحال و أنت يا إدوارد، كيف كانت المقابلة؟

- أوه! أجل لقد جرت كما خططت لها سنوقع على الإتفاقية لاحقاً.

كانت مجريات اليوم فريدة من نوعها الحمى.. المغامرة و الشاب  
الخطير كلاوس أيضاً، فماذا بانتظار بيانكا من مغامرات يا ترى؟.

\*\*\*\*\*

\*\*\*\*\*

\*\*\*\*\*

في ذكرى قديمة تراود بيانكا هذه الأيام لاسيما في الأحلام، كانت  
السما التي ترقبها من خلف النافذة ملبّدة بالغيوم الرمادية و تصيح  
كل فينة وأخرى على هزيم الرعد و ضوء البرق، إدوارد غادر هذا  
اليوم باكراً إلى الشركة و بقيت الطفلة لوحدها تصارع الخوف، وكل  
لحظة وأخرى تلقي بنظرها على حديقة المنزل لعلها ستلمح شقيقها  
أت من بعيد لكن ومع نور البرق يظهر ظل خافت على أرضية  
الحديقة ثم يختفي مع رحيل ذلك النور وما إن رأت بيانكا ذلك حتى  
برزت عيناها الجميلتين واتسعت حدقتاهما و باتت ترتجف مما رآته  
فظلت تردد في صمت مع نفسها: " أسرع بالعودة يا أخي أنا خائفة!  
أنا خائفة!... ماذا لو كان ما رأيته طيفاً؟ يا إلهي!!..."

ثم لم تلبث حتى سمعت مقبض باب الغرفة يفتح، كانت ترقب عن  
كثب من خلفه إلا أن عينيها وقعتا على إيما صديقتها الوفية  
فانتفضت من مكانها و أسرعت إليها راجية إيها أن تبقى بقربها،  
مشاهدة إيما لبيانكا و هي على تلك الحال جعلها تدرك أن هذا  
المنزل العظيم لا يروق لطفلة صغيرة أبداً فهو أوسع من عالمها  
الصغير فقامت و ربّت على كتفيها و أشارت بسبابتها على ناصيتها  
قائلة :

- لما كل هذا الخوف يا صغيرتي؟ أنت حتى لم تنيري غرفتك  
الظلام هنا شديد...

غمغت بيانكا و هي تشدّ ثياب نومها :  
- لم أستطع الحراك من شدة الخوف لهذا لم أنر الغرفة يا إيما  
.. أرجوك لا تدعيني في هذا المكان لوحدي!  
كانت تحرق إيما في ملامح بيانكا اليائسة فمسكت راحة يدها و  
وضعتها على خدّها و أفصحت :  
- هل تريدان مرافقتي إلى المطبخ يا سيدتي الصغيرة؟ لكن وليكن  
في علمك أن الجو هناك ممل فهل أنت موافقة؟..

اشتعلت حماسة بيانكا و أجابت بنظرات الحماس:  
- أنا موافقة يا إيما هيا لنذهب.

ولدن همّها بالمغادرة ألقت نظرة صغيرة من النافذة الظل قد اختفى  
وأردفت في نفسها: " ربّما كنت أتوهم لا أكثر أتمنى ذلك..."

في المطبخ كانت المرة الأولى لبيانكا فيه الطهاة يلقون آراءهم و  
الآخرون يسجلون ما يجدونه مناسباً أما الخادّات فكُنّ يتجادلن عن  
التي ستتولى أمر التنظيف لنهار اليوم المكان كان حيويّاً جداً لا  
تسمع إلا قرع الصحون و الملاعق فإتخذت إيما وقفة معدّلة ثم  
صاحت:  
- إسمعوني جميعاً هيّا!.

ولدن هذه الصيحة التفت الجميع وقد أشاروا بوضعية الإستعداد ثم  
استمرت في كلامها:  
- اليوم سنتنضم إلينا الآنسة بيانكا لذا عاملوها بلطف هل هذا  
مفهوم!  
- مفهوم يا رئيسة الخدم.

دهشت بيانكا من ردة فعل الخدم لكلام إيما لم تكن تدري أنها قائدة عظيمة فأهدتها هندام إحدى الخادومات اللواتي استقلن كان واسعاً عليها لكنه يكفي بالغرض فقالت إيما بصوت هادئ :  
- آسفة عليك ارتداء هذا حتى لا تتسخ ملابسك الأنيقة..

فأشارت بيانكا ملوحة برأسها يميناً ويساراً :  
- لا تقولي هذا لقد أحببته كثيراً...

ثم شرع الجميع الكل منغمس في عمله أما إيما فقد أوكلت لبيانكا مهمة تجفيف الصحون و تلميع الملاعق، كان العمل متعباً لكنها شعرت بالمتعة في نفس الوقت. وعند انتهائها طراً على مسامعها صوت النافذة و هي تهتز فصاح أحد الطهاة:  
- ما كل هذا الضجيج ؟ فليحكم أحدكم إيصاد النافذة !...

فردت بيانكا:  
- أنا سأغلقها...

وعندما شرعت بغلقها وقع نظرها على ذاك الظل ثانية لكنه كان مصحوباً بوقع أقدام فصوص الحشائش بات يخشخش، صغقت بيانكا مما تراه فثبتت في مكانها ولم تنطق بكلمة إلى أن تقدمت نحوها إيما و أوصدت النافذة بإحكام و سألتها :  
- ماذا هنالك يا بيانكا؟...

ثم أشاحت برأسها إلى النافذة واستمرت:  
- هل رأيت ما يخيفك يا بيانكا؟ .

فوجهت الصغيرة نظرها إلى الحديقة و مرة أخرى الظل قد اختفى لم تكن بيانكا على دراية بما تواجهه في تلك اللحظة و أمست تحقق بإيما تعلقو محياها نظرات ميؤوسة وكأنها تريد أن تفصح لإيما بصوت خافت: " صدقيني لقد رأيته أنا لا أتوهم." لكنها احتفظت بشعورها في قلبها الصغير. وتابع ما يجري حولها بصمت. و هاقد أتى موعد الغداء.. صحن بيانكا و ملعقتها كانت قد تولت أمر تلميعهما بنفسها لهذا فإن الطعام سيكون ألد من سابقه هذا ما كانت تظنه إيما لكنها كانت مخطئة لم تلمس الطفلة الطعام أبداً ماجعلها تدرك أن بها خطباً ما إذ أردفت بصوت أجش :  
- ليست لدي رغبة في تناول الغداء... متى سيعود أخي؟.  
فقاطعتها إيما بقولها :  
- إذا أردت يا سيدتي يمكنني الإتصال به إن أحببت.

هذه العبارة قد بثّت أملا كبيراً في قلب بيانكا. فتناول الخادمة السماعه و بقيت تنتظر حتى أجابها موكل إدورد فقالت :  
- عذراً هل يمكنني التحدث مع السيد إدورد؟ .

فلبث الموكل قليلاً ثم أجاب:  
- انتظري لحظة من فضلك.

ثم سمعت صوت إدورد فقالت له بنبرة قلقة :  
- سيد إدورد متى ستعود إلى المنزل؟ الآنسة بيانكا ليست على ما يرام...  
فصاح إدورد في وجهها:

- ماذا حدث لشقيقتي؟ لا تقولي لي أن مكروهاً ماقد أصابها!..  
أنكرت إيما بقولها:

- لا أبداً يا سيدي لكنها تأبى تناول الغداء و تريدك أن تعود إلى المنزل قريباً.

تنهد إدورد ثم استطرد كلامه :

- حسناً سأنهي عملي بسرعة وأعود إلى المنزل أخبرني بيانكا أن تنتظري وأن تتناول غداءها و إلا سأغضب منها إلى اللقاء الآن... وأقل إدوارد الخط. فاستدارت إيما بمقابلة بيانكا و أردفت قائلة:  
- سيعود السيد إلى المنزل قريباً و قد طلب منك تناول غداءك و إلا فإنه سيغضب منك لذا هيا ابتهجي!...

علت بيانكا ابتسامة عريضة و قامت فشكرت إيما على مساندتها لها و صعدت إلى غرفتها بعدما أنهت صحنها، كان درج مكتبها مشقوقاً و قد تدلّى من إحدى زواياه كتاب لم تشاهده بيانكا من قبل كانت صورة الغلاف بها فتاة مشردة وخلفها ظل لعجوز شريرة، فنفرت منه ورمته في الخزانة واستلقت على السرير كانت تشعر بالتعب مما مرت به اليوم فأخذت غفوة وكأنها دخلت في سبات أبدي

و في المطبخ لاحظ الخدم شرود إيما المتواصل فقامت إحدى الخادمت التي تدعى "دورثي" وسألت رئيسة الخدم :  
- هل تشعرين بشيء يا إيما فقد لاحظنا شرودك المتواصل عن العمل...

نظرت إليها إيما ملياً ثم أجابت :

- آه، أشعر أن الأنسة الصغيرة قد لاحظت وجودها في هذا المنزل يا رفاق..

تعجب الجميع من كلامها ثم صاحوا: " هل تقصدين تلك .... ؟ "

- أجل، يبدو أن الوقت قد حان لتراها...

شعر إدورد الذي قضى جلّ وقته في الشركة أن الأمر متعلق بشيء  
أفزع قلب صغيرته بيانكا كونها لا تأبى تناول الغداء إلا إذا كان  
هنالك ما يشغل تفكيرها، و هو على هذه الحال سمع طرقا على  
الباب فأردف:

- تفضل....

لقد كان السيد دومينيت خلفه فبعد أن سمح له بالدخول و جلس على  
المقعد الذي يقابل إدوارد صاح قائلاً:

- لقد أعلمني رئيس شركتي عن نيته في البدء بتطبيق المشروع يا  
سيد إدوارد فهنئاً لك يا صديقي.

- هذا خبر مفرح حقاً، سيكون من دواعي سرورنا أن نعمل معكم يا  
سيدي...

فتصافح السيدان ثم أردف السيد دومينيت:

- سأعود إلى كندا و سأوافيك بآخر المستجدات لاحقاً... شكراً لك....  
إلى اللقاء .

- رافقتك السلامة! ...هاااه.. حسنا يمكنني العودة إلى المنزل الآن  
إنْتَظِرْني يا صغيرتي لن أتأخر! ...

بينما كانت بيانكا تغط في نوم عميق، دوى صوت الرعد فأنار البرق  
الغرفة برمتها وكانت النافذة مشقوقة سمحت بدخول الهواء البارد  
ما ترك بيانكا تستيقظ لإغلاقها و عندما أَلْقَتْ بنظرها للأسفل  
صدمت مما رأتها، لقد كانت عجوزاً شمطاء يغلب على ثيابها اللون  
الأسود ووجهت لبيانكا نظرات ثاقبة تلتها ابتسامة صفراء، كانت  
تنظر إلى غرفتها بإمعان شديد فهتّت بيانكا لغلق الستائر و اختبأت  
في زاوية ضيقة. كانت صورة العجوز تتجسد بذاكرتها كلما أغلقت  
عينها فلم تلبث حتى نزلت إلى المطبخ، اتجهت صوب إيما مباشرة  
تمسكت بها و ناجتها قائلة:

- أخبريني بالذي يحدث يا إيماء؟ هل في هذا المنزل غير الذين أعرفهم هيا أجيبني.

علت الحيرة وجه إيماء ثم استدركت الكلام قائلة:

- أنت تتوهمين يا بيانكا لا أكثر، لا يوجد أحد في هذا المنزل غيرنا وسيعود السيد ألكسندر وابنه قريباً لذا انتظريهم بهدوء أتفقنا؟..

لم تشأ إيماء إعلام بيانكا بالذي تعرفه لأنها ستعاقب بكل تأكيد. فطلبت من بيانكا الجلوس في الصالة إذا انتابها الخوف وفعلت ذلك، كانت كل لحظة تلقي لمحة صغيرة على النافذة. كان المطر شديد الغزارة ومع كل قطرة منه يدنو وقع أقدام من الشرفة، المرة الأولى لم ترى بيانكا شيئاً، و المرة الثانية كذلك لم تشاهد بيانكا أحداً، لكن عند المرة الثالثة العجوز خلفها تماماً بدت لها الآن بوضوح مما رأتها عليه في غرفتها كونها في الطابق الأعلى، ملامحها المهترئة وعيناها الجاحظتان قذف في قلب بيانكا الرعب فانتفضت من على الأريكة ورجعت للوراء، كانت تفكر في الهرب أو الصراخ لكن العجوز ضمت سبابتها إلى شفاهها وأشارت أن " لا تصرخي ".... فباتت ساقا الطفلة ترتعدان ما جعلها لا تقدر على المسير أما العجوز فقد واصلت اقتحام الغرفة بعدما فتحت النافذة إلى أن تعثرت بيانكا و صارت ملقاة على الأرض، لا تفصلها عن العجوز إلا بعض خطوات فقط، فأمست تردد تحت أزيز الرعد و قد اتسعت حدقتا عينيها :

- لا تقتربي مني! دعيني وشأني أرجوك!.

سمعت صوت إدوارد يحدث العجوز من خلفها:

- لم خرجت الآن ؟ ..ألا تعلمين مقدار الخوف الذي سببته لشقيقتي؟...

فأجابت العجوز بابتسامة متزنة :



- انظروا من يتحدث؟ ألا تحجل من نفسك يا ولد؟ كيف تترك جدتك لوحدها في تلك الغرفة دون أن تسأل عن حالها؟ .

لم تلبث بيانكا حتى تشبثت بستره إدوارد ولم تفلتها أبداً، كان يمسح على شعرها الطويل و يلاطف خدها ثم ارتسمت على وجهه نظرة أسي فقال:

- أعذريني يا عزيزتي لأنني لم أعلمك بأمر جدتي حتى الآن..لم أجد فرصة لأخبرك. لقد سببت لك الخوف أنا آسف حقاً.

رفعت بيانكا رأسها ثم حاولت استيعاب كلامه فصاحت صيحة قوية:

- ماذا جدتك؟!!! ... هل هذه حقاً جدتك يا أخي؟.

- أجل! إنها جدتي والدة أبي يا بيانكا...

- لكنها مخيفة جداً ... مخيفة!

عبست الجدة في وجه بيانكا ثم رفعت من نبرة صوتها و قالت:  
- هااه! من هي المخيفة يا قليلة الأدب ...لقد أشرت عليك بفتح النافذة مراراً لكنك أغلقت الستائر في وجهي أليس هذا ما حصل؟.

أدركت بيانكا أن ما كانت تشير إليه الجدة ما هو إلا طلب للمساعدة فقامت و عدلت من جلستها ثم أردفت :  
- أعذريني أيتها الجدة... لم أكن أقصد ذلك سامحيني لن أكررها.

تصرف بيانكا النبيل ترك الجدة تعيد النظر في حقيقة مشاعرها الصادقة فطمأنتها بكلام رائع:  
- كنت أتوق لمقابلتك لكنني لم أعلم أنك فتاة رائعة جداً اعتبريني جدتك يا صغيرتي موافقة؟.

- أجل أنا موافقة يا جدتي! إدوارد، لماذا الجدة لا تتناول الطعام معنا؟.

علا التوتر على محياه و لم يجد ما يقنع به بيانكا فأجابها السيد ألكسندر الذي وصل منذ هنيهة:

- والدتي لا تستطيع الجلوس هنا أو حتى تناول الغداء معنا لأنها مصابة بالعضال ولا بد أن تبقى في سريرها، لكنني أراها قد تحدث الطبيب وخرجت في هذا الجو الماطر.

ردت الجدة بثقة كبيرة:

- أنت تخالني صرت طاعنة في السن ولم أعد أستطيع أن أقضي وقتي كما أشاء، الإنسان يشعر بالملل حتى ولو كان في جنة خضراء نعماء فالإعتياد على طبيعة واحدة لا يجعل منها لوحة فنية وإنما لمسة طفيفة على تلك اللوحة هل فهمت يا بني؟ على كل سأعود إلى غرفتي....

استوقفتها بيانكا راجية إياها و قد مسكت أناملها الصغيرة يد الجدة قائلة:

- أرجوك يا جدتي ا بقي هنا معنا، أريد أن أسمع ما في جعبتك من قصص هيّا!..

نظرت إليها الجدة مليا ثم أردفت بابتسامة هادئة :

- منذ مدة لم أروي لأحد قصصي، لقد كان إدوارد الوحيد الذي لم يمل منها أتذكر ذلك جيدا، لكنه الآن ....نسي كل تلك الأوقات الثمينة التي قضيناها معاً....

ثم تدخل إدورد بكلامه :

- أنت مخطئة يا جدتي أنا لم أجد الوقت الكافي لمسامرتك فقط لكنني أعدك أن أزورك في غرفتك مع بيانكا كلما سنحت لي الفرصة ...

بعدما أنهى إدوارد كلامه ارتسمت ضحكة مشرقة على محيا الجدة حتى برزت تجاعيد وجهها ثم أردفت:  
- حسناً سأنتظركما..  
وعند صارت أمام الباب استدارت ثم أكملت:  
- عليك أن تفي بوعدك لي يا إدوارد مهما حدث...

أجاب بصوت حماسي :  
- أجل يا جدتي..!

شعرت بيانكا بالحزن الشديد لحال الجدة فتمسكت بقميص إدوارد وظلت تفكر كيف أن الجدة وحيدة لا تؤنس وحدتها إلا حيطان غرفتها. فكيف ستساعدها للخروج من عزلتها؟ وهل سينشرح صدر الجدة إذا صارت بقربها؟.

بعد العشاء دعت بيانكا إدوارد إلى غرفتها، لقد احتار كثيراً من هذا فأجلسه على السرير و جلست القرفصاء ثم أسندت رأسها إلى فخذه و وضعت راحة يده على خدها ثم باشرت الحديث:  
- أخي تراودني هذه الأيام أثناء نومي ذكرى قديمة لا أنذكرها بوضوح، إنها عن منزلي الذي كنت أعيش فيه مع والداي... كنت أتمشى في حديقة المنزل ثم نادتنني أُمي و طلبت مني مساعدتها في ترتيب الزهور و عند عودة والدي من العمل قامت أُمي و دنت منه، كانا يتهامسان لكنني لم أستطع فهم ما يدور حولهما ثم استيقظت من حلمي، فهل لديك فكرة عما كانا يتحدثان عنه؟.

أجاب إدوارد مكشراً:  
- صغيرتي بيانكا لا تشغلي بالك كثيراً، أعلم أنك ستتذكرين كل شيء في الوقت المناسب.

ثم قبلها و استمر:

- دعي الأمر لقلبك فهو الأدرى بالجواب،.. والآن حان وقت النوم هيا هيا!.

- حسناً يا أخي .. تصبح على خير..

- تصبحين على خير... أحلاماً سعيدة يا حلوتي.

\*\*\*\*\*

\*\*\*\*\*

\*\*\*\*\*

استيقظت بيانكا على شجار إدوارد مع والده فهرعت إلى الطابق السفلي في غرفة المعيشة حتى تقع عيناها على شقيقها ملقاً على الأرض و السيد ألكسندر يهّم بتوجيه لكمة على وجهه حتى صرخت قائلةً :  
- توقفا!! لا! .

ثم تتجه فوراً صوب إدوارد و تطوّق عنقه بساعديها قائلة:  
- لن أسمح لك بإيذاء أخي ! .

لم يعر السيد ألكسندر اهتماماً لكلامها بل ظلّ يرمق إدوارد بنظرات الغضب و هالة الشر تحيط بعينه الشهلاوتين، فردد بحزم :  
- ستنطلق بعد يومين رفقة السيد كارل إلى كندا لتراقب سير المشروع لذا كن مستعداً ...و إياك أن تناقشني في الموضوع ثانية هل هذا واضح ؟! .

حاولت بيانكا استيعاب كلامه :

- كندا ، بعد يومين، إدوارد سيذهب !.  
التفتت إليه و شددت قبضتها الصغيرة على كتفيه تهزه ثم نطقت  
كلماتها بصوت أحش :  
- هل سترحل عني يا أخي ؟ أجبني ! قل شيئاً ! لا تتركني بمفردي !.

فما كان من إدوارد إلا أن ضمها إلى صدره و ربت على ظهرها ثم  
رفع يده و مسح على شعرها ذات اليمين و ذات الشمال ثم أردف  
بنبرة قلق و غلبة أمر :  
- لا يسعني الابتعاد عنك يا صغيرتي لذا كوني مطمئنة ولا تقلقي لن  
أتخلى عنك أبداً... هيا ابتهجي !.

لم تكذب بيانكا تثق بكلامه غير أن رجائه كان محل وخز في قلبها  
جعلها تذعن للأمر و تقرر أن ما حدث مجرد وهم لكن يمكن أن  
يصبح الوهم حقيقة .

تناولت الفطور و خرجت إلى الحديقة حيث كانت تنتظر صديقتها  
إنجي فقد اتفقتا ليلة أمس على قضاء هذا اليوم مع بعضهما حتى تعلم  
منها أخبارهن و تسأل عن أحوال عمها الذي عاد إلى المكسيك  
لثلاثة أيام.

حديقة المنزل كانت رائعة جداً، فالأزهار ترسم البسمة في شفاها  
ناظرها و تهديه تحيات بلغة لا يفهمها سوى الوجدان المرهف و  
تداعب قطرات المطر وريقات الورد و هنا تأتي إيما تسأل :  
- ما بال السيدة يا ترى؟... هل تشعر بالحزن؟..  
أشاحت بيانكا رأسها صوبها ثم أجابت بصوت مرتعد:  
- إيما ساعديني ! أخشى أن يرحل أخي إلى كندا...

ألقت نظرة حول الحديقة وعلقت بصوت حنون و لطيف :  
- السيدة جوليا زرعت هذه الأزهار عندما ساءت علاقتها بالسيد،  
ربما كانت تعلم أنها آخر شيء تقوم به في هذا المنزل...

بيانكا كانت تصغي لكلام إيما بلهفة، ثم استمرت:  
وعندما رحلت، مرت الأزهار بفترة عسيرة إلى أن كبر السيد  
إدوارد و أعاد إحياءها من جديد، لا تقلقي يا صغيرتي لن تسمح  
الأزهار برحيله أبداً كما رحلت السيدة جوليا.

- بيانكا!.. كيف حالك يا صديقتي!

وصلت إنجي. حملت بيانكا بنظرات تعيسة اتجاه إيما فقالت:  
- إيما لا تخفي عني شيئاً، إذا لمحت إدوارد يخرج من المنزل  
أعلميني فوراً... هل ستفعلين؟.

- بالتأكيد سأفعل!.. لا تقلقي و أتمنى لك وقتاً ممتعاً مع رفيقتك.

شعرت إنجي أن خطبا ما أصاب بيانكا فقادتتها هذه الأخيرة إلى  
غرفتها ثم استوقفها حال الجدة فاصطحبتها إلى حجرتها، عندما  
طرقت الباب سمعت ردها :  
- أدخل!.

لما وقعت عين الجدة على بيانكا و إنجي انهالت الفرحة على قلبها  
فنادرا ما تجد من يزيح عنها آلام وحدتها و حالها البائسة فاستأذنت  
منها الطفلة حتى سمحت لها بالجلوس فأردفت الجدة :  
- لطف منك يا صغيرتي أن تأتي لزيارتي في غرفتي!..... لكن لم لم  
يحضر إدوارد؟  
- أنه غاضب من والده قليلا لكن لا تقلقي يا جدتي.

و بقيت الفتاتان تمرحان إذ روت إنجي مجريات ما يحدث مع بياتريس و أوديت من شجار و مشادات بالأيدي كون أوديت لا تكثرث لما يحدث حولها ملقية مسؤولية المنزل على عاتق بياتريس التي ضاقت ذرعاً من انطوائيتها. فكانت الجدة تنصت لقصصها بإمعان شديد و تتابع حركاتها الكوميديّة حين تقلد إحداهن، و مهما كان كلام إنجي ممتعا غير أن بال بيانكا كان مع إدوارد ما جعل إنجي تلحظ ذلك :

- بيانكا ما بك؟ أنت لست معي أبداً؟ هل حدث شيء؟...  
 - لا! ألا شيء أنا متعبة قليلاً... حسناً! هل تأتين معي لشرب الشاي فايما بارعة في إعداده...  
 ظلت إنجي تحرق ببيانكا لعلها تلمح دليلاً على إخفائها لسر ما لكن بطنها أبى الإنتظار فنسيت الموضوع تماماً. ثم استأذنتا الجدة بالإنصراف فشكرتهما على الوقت الطيب الذي قضته معهما .  
 في المعيشة تحدثت الفتاتان كثيراً فكانت أصواتهما تملأ الأرجاء و قد أشارت إنجي بكلام وجدت فيه بيانكا خروجاً عن الصواب :  
 - بيانكا.. إن بياتريس تفكر في التوقف عن أخذ دروس الرسم عما قريب. رأيك بذلك؟.

أرسلت بنظرات استطلاع على محيا بيانكا ثم أكملت:  
 - تعلمين أننا رفضنا المشاركة في البطولة الماضية و تغيبت مجموعتنا عن عدة لقاءات لهذا فقد وصلت بياتريس رسالة من المدير مفادها أن تمتثل أمامه بعد يومين لتفسر له ما حصل.  
 دهشت بيانكا مما طرأ على مسامعها فطأطأت برأسها سافلاً ثم استطردت الكلام بصوت أجش مرتعد:  
 - لعلني السبب فيما يواجه بياتريس الآن... لقد كنت أنانية بتركنّ تواجهن مشاكل المنزل بمفردكن أنا آسفة حقاً! آسفة!..  
 فيما أنت إيما و وضعت سينية الكعك و رأت الحزن باد يخيم على بيانكا، استوقفت ذلك الجو الملبد بحكمة مأثورة فقالت:

- الزمان يلقي بي في سجن ضميري لكن قلبي يأبى الرضوخ  
لغيري لمن هم خلف قضبان صدري فابتهجي يا صغیرتي لأن  
الأمل نافذة تطل على بحر الأحزان فافتحيها و أنيري حياتك لأن كل  
لحظة تنقضي تحسب عليك في نهاية المطاف...

لم تجد إنجي من كلام إيما إلا الألغاز و الحيرة إلا أن بيانكا ارسلت  
إليها ابتسامة خفيفة ثم أردفت :  
- هذا صحيح يا إيما أنا أثق بكلامك.

قبيل مغادرة إنجي اردفت بصوت حنون :  
- سأشتاق لك كثيراً يا صديقتي اعتني بنفسك.... سأزورك مرة  
أخرى!..  
- حسناً يا إنجي بلغي تحياتي للجميع و أوصلي اعتذاري الخالص  
لبياتريس أنا آسفة!..  
قاطعت إنجي كلامها :  
- لا تعتذري أبدا سنتدبر أمرنا فلا تقلقي.. حسناً إلى اللقاء الآن.

فلمحت الفتاتان إيما من بعيد و علامات القلق لا تفارق عينيها حتى  
أردفت بنفس متقطع:  
- سيدتي.. سيدتي.. لقد.... لقد غادر السيد إدورد المنزل!..

لم تصدق بيانكا ما طرأ على مسمعها أما إنجي فقد قاطعت هذا  
الإحساس بسؤالها:  
- وما المقلق في مغادرة شقيقك للمنزل يا بيانكا؟..  
توترت هذه الأخيرة فالتفتت صوب رئيسة الخدم ترمقها بنظرات  
مريبة حتى قالت:  
- لا.. أنت توهمين فقط و الآن نلتقي قريباً وداعاً!..



....و صدت الباب في وجه إنجي التي لم تغب الحيرة عليها فهمست في نفسها:  
- أمرهما غريب!.. حسنا لقد استطعت مقابلتها و هذا ما يهمني ههه..

بعد غلق بيانكا للباب صاحت:  
- لماذا! لماذا لم تمنعني يا إيما ألم تعدينني بذلك؟.

حملت إيما فيها كثيراً ثم أشارت إليها:  
- سيدتي لقد وعدتك أن أعلمك فور ذهابه ولا أذكر أنني قطعت لك وعدا بمنعه من الخروج....

وجدت بيانكا في كلامها اليقين فانهالت على الأرض واهنة تصيح:  
- لا أريد أن أبقى وحيدة كما كنت من قبل!...لماذا تركتني يا أخي.. إدوارد!.

دنت منها إيما برفق فحملتها إلى غرفتها، كانت نفسية بيانكا منهارة تماماً، فإدوارد لم يفارق مخيلتها أبدا . وضعتها إيما على السرير و قبلت جبينها بحنان فأطبقت الصغيرة شفقتها تحاول إخفاء ما يعتصر قلبها .

أما إدوارد فقد اتجه صوب شقة أحد أصدقائه الذي يدعى مارك و عندما لمحہ أمام منزله صاح مسرورا:  
- آه!... أهلا بصديقي القديم كيف حالك يا رجل؟.

نظر إليه إدوارد يائساً ثم تحدث بنبرة بائسة:  
- أنا بخير ..شكراً لك.

- لا داعي للشكر تفضل بالدخول ، المنزل منزلك يا عزيزي..

بعدما عدل إدوارد من جلسته باشره بالحديث:  
- مارك إن لم تمنع أريد قضاء بعض الوقت هنا في شقتك...

حملك الصديق فيه مليا ثم رمقه بابتسامة هادئة وقال:  
- وكم سيدوم مكوئك في شقتي أيها العزيز؟.

- ليس أكثر من يومين...

ضم مارك مرفقيه حول بعضهما و هو يلح توسلات صديقه له  
فرفع يده و مررها على شعره وقال:  
- لا أمانع... من دواعي سروري أن أقدم يد المساعدة إليك ففضلك  
علي لا ينسى و قد كنت كريما معي فأهلا بك في شقتي المتواضعة،  
وإن لم تمنع فأنا أريد أن أسمع قصتك كاملة فلا أخالك تترك منزلك  
العظيم و تأتي للعيش في شقتي.

- أعيش فيها؟ يومان فقط لا غير.... معك حق.. فوالدي يرغب  
بإرسالني إلى كندا للمساهمة في مشروعه الجديد.

وجد مارك من أن مطلب والده عادي جدا لا يكفي بهروبه من منزله  
فسأله مستفسرا:  
- أعذرني يا صديقي لكن ما الذي يمنعك من مغادرة البلاد؟ .

- لا أخفيك سرا فأنا صار لدي شقيقة صغرى في العاشرة فلا  
تتصدم بهذا...

صاح مارك في وجهه غير مصدق :  
- ماذا تقول؟ وكيف ذلك؟ لا تقل لي...؟.

- لا تذهب بمخيلتك بعيدا فوالدي انفصل عن روز قبل مدة ..

تنهد بعمق و أردف:

- ... إنها ابنة والدتي المتوفاة من زوجها و قد صار والدي وصيا عليها و لم يلبث حتى نقل الوصاية إليّ . ولهذا فأنا لا أرغب بالذهاب خارج الوطن و تركها لوحدها... افهمني.. إنها لا تترتاح لأحد غيري.. لم يبق لها سواي و عمها.

فكر مارك قليلا و ما لبث حتى أشار عليه بفكرة:

- ما رأيك أن تصطحبها معك؟ أليس هذا الأنسب لكليكما؟.

حملق إدورد بمارك و فغر فاه كأنه استيقظ الآن من سباته فطرق بالسبابة الخنصر و ظل يردد :  
- ولما لا؟.

لكثرة ما مرت به بيانكا اليوم من متاعب فقد دخلت في نوم عميق لم تستيق منه إلى موعد العشاء فعندما انصرفت إلى غرفة الطعام سألت إيما بعدما جلست في مقعدها المعتاد :  
- أين أخي؟ لما هو ليس بيننا الآن؟...

ظلت إيما ساكنة و لم تتطرق بكلمة أما السيد ألكسندر فقد قال:  
- ربما لن يعود أبداً فقد اختفت بعض أمتعته من الغرفة و كذلك ملابسه....

انزلقت الملعقة من يد بيانكا من هول ما سمعته فتأوهت وقالت بضيق :

- أنت كاذب ! أنا لا أصدقك لا يمكن أن يرحل أخي دون توديعي، إذن سأرحل أنا أيضاً.. لقد شبعنا سأعود إلى غرفتي....

فقاطعتها إيما بقولها:  
- لكنك يا صغيرتي لم تتناول شيئا!.

عندما كانت تصعد بيانكا الدرج كان الرواق موحشا فعلى يمينها  
غرفتها و من شمالها غرفة شقيقها المفقود و دون وعي ساقتها  
قدماها إليها، إنها هادئة جداً فجابت الأرجاء كأنها ولأول مرة تطو  
هذه الغرفة. وتهاطلت عليها تلك الذكريات الحلوة فهنا كان إدوارد  
يدرسها و على الشرفة علمها أسماء النجوم في دياجير الليل و من  
على سريره كان يستلقي ممسكا بيده كتابا و عيناه منغمستان فيه  
... فيستقبلها بحنان وعطف عندما كانت تهتم إلى صدره خائفة و الآن  
دون سابق إنذار؛ يختفي فجأة كما ظهر في حياتها فجأة ... ارتمت  
على السرير و قد غمرت الدموع وسادة إدوارد.

في اليوم التالي خرجت بيانكا من غرفته صوب غرفة المعيشة لكن  
هيهات فالأخ العزيز لم يعد إلى المنزل، وما خطر ببالها وقتها سوى  
كلام السيد ألكسندر عشية أمس: « ربما لن يعود أبداً ... أبداً ... أبداً »  
لا!!! صاحت بيانكا.

انطلق إدوارد هذا الصباح رفقة مارك إلى الحديقة العامة للقاء أصدقاء الثانوية و الأيام الخوالي كان هناك جيمس، جونز و هالك و الجميع كان قد افتقد إدوارد كثيراً منذ توليه مسؤولية الشركة فتبادلوا أطراف الحديث عن أيام الثانوية و الجامعة و ما حققه كل واحد منهم فجيمس رجل أعمال شهير و جونز أستاذ في الجامعة الرئيسية للفنون أما هالك فهو بطل عالمي في الملاكمة و لا ننسى أن مارك مدير لإحدى الثانويات في المدينة رغم صغر سنه. و كما كان الحديث ممتعا إلا أن إدوارد كان شاردا طيلة الوقت، ما ترك مارك يعتذر عن أمر طارئ ليجره إلى مقهى مجاور فباشر الكلام دون لف ودوران:

- صديقي عليك اتخاذ قرارك بأسرع وقت ممكن، أنت تفرض على نفسك أكثر من طاقتك مارأيك أن تحصل على جواز سفرك اليوم فغداً تنتقضي المهلة التي منحها لك والدك أنسييت؟.

أمسك إدوارد كوب العصير بكلتا يديه و تمت بصوت قلق و متوتر:  
- لا لم أنسى... لكنني متردد كثيراً... هذا ليس سهلا أبدا.. أنت تعرف بلاد الغربه جيدا يا مارك.

- معك حق يا صديقي آسف...

ظلت بيانكا مستلقية على الأريكة بانتظار رجوع أخيها و إيما كانت تقوم بالتنظيف بمساعدة دورثي فوضعت المكنسة في زاوية الجدار و خطت نحو الأريكة فأحنت ركبتها و همست بصوت رقيق المشاعر :

- سيدتي الصغيرة... أتمنى أن لا تفقدي الأمل و أن تتقي بالسيد إدوارد فهو والدك و أخوك و صديقك و كل شيء فإن لم تفعلي فبمن تتقين؟.

استدارت إليها بيانكا وقد اغرورقت عيناها بالدموع فقالت بصوت أجش:  
- و ماذا إن لم يعد يا إيماء؟.

مسكت رئيسة الخدم يديها و ضمتها إلى صدرها و قالت:  
- سيعود ثقي بكلامي....

رضخت بيانكا لكلامها و قد ثقفت أن هناك شخصاً آخر غير شقيقها يرأف بحالها فقالت:  
- إن كان إدوارد والدي و أخي و صديقي فأنت يا إيماء والدي و أختي و صديقتي أيضاً.

فقبلتها بخفة و استمرت:  
- أنا أحبك كثيراً!..

شعرت إيماء بالخل و أعين دورثي تحقق بهما... إنها دراما ممتعة! هكذا قالت قبل أن تكمل واجبها في التنظيف.

في مساء اليوم تحصل إدوارد على جواز سفره بمساعدة مارك كونه تأخر في طلبه . و هما في السيارة أفصح إدوارد :  
- لقد اتخذت قراراً يا صديقي...  
ألقي مارك نظرة خاطفة على وجه صديقه فكان جاداً مصمماً على نيل مبتغاه ثم أراح نظره نحو الطريق و قال:  
- ألن نتقدم فيما بعد؟ فالصغيرة على حد علمي ستعود إلى مقاعد الدراسة قريباً .

- لا تقلق! .. رتبت لكل شيء ستكون بخير

- وماذا لو رفضت؟.

أطبق إدورد شفتيه ثم أردف:

- لن ترفض ... ما إن أعود إلى المنزل حتى تنساق لمطلبي بكل سهولة فهي تنتظر عودتي بفارغ الصبر.

حملق مارك فيه مليا ثم قال بنظرات ساخرة:

- يبدو أنك تدرك ردة فعلها جيداً فأني أراك واثقا على عكس ما كنت صباح اليوم. ثم أطلق ضحكة خفيفة....

أشاح إدورد بوجهه ثم قال بعد سكون المكان:

- لا أدري كيف أشكرك لقد كنت عوناً لي في محنتي هذه.

- لا تقل ذلك المهم الآن هل ستعود إلى منزلك الآن أم تبقى عندي حتى نكمل جولتنا في البلياردو؟

- أنا لا أقبل الإنسحاب يا هذا!....

ثم أكمل بصوت أقل خشونة:

- سأعود إلى منزلي صباح غد فذلك أفضل.

- لو كنت مكان شقيقتك لأبرحتك ضرباً لجعلي أنتظر ليومين كاملين. ألا تعلم أن الأطفال حساسون جداً لمثل هذه الأمور؟.

بقيت بيانكا في غرفتها معظم الوقت و لكنها أبت الإستسلام فهي الآن واثقة أن أخيها لن يتخلى عنها بتلك السهولة. و لا نخفي أن إيما لازمتها طول اليوم على غير العادة ما جعلها تستمتع بصحبتها و لو قليلاً. فتنام بعد انقضاء يوم آخر على غياب الأخ المفقود.

\*\*\*\*\*

\*\*\*\*\*

استيقظ مارك بعد الجلبة التي أحدثها إدوارد فقد كان يحزم أمتعته و يراجع الأوراق الرسمية التي سيسافر بها فقال:  
- صباح الخير يا إدورد. هل ستغادر الآن؟.

- صباح النور، أجل سأغادر الآن فلم يعد بإمكانني الإنتظار أكثر.

حق الرفيقان ببعضهما ثم دخلا في عناق حميمي و عند الوداع قال إدوارد:  
- لن أنسى وقوفك إلى جانبي ما حييت.... شكرا جزيلا يا مارك.

- لا تشكرني و الآن على بركة الله رافقتك السلامة  
انتقضت بيانكا من على سريرها جزوعة و في الوقت ذاته شعرت بالسعادة لأنها استطاعت كشف ما كان والداها يتهاامسان به فإتجهت إلى غرفة إدورد تطرق الباب منادية عليه ففتحته و كانت قد ثقت لحظتها غياب شقيقها منذ يومين و اليوم موعد سفره إلى كندا، فأعادت غلق الباب تجر معها ألام الخيبة وتناولت الفطور الذي لم تستسغ طعمه، و اتجهت إلى حديقة والدتها تداعب الورود و تقبل الزهور؛ فجلست القرفصاء لعلها تنسى ما آلت بها الأحوال و ضاقت بها السبل... فشعرت بكف حنونة تربت على كتفيها خالتها إيما لكن ما جعلها تغفر فاهما ليس شخصا تراه كل لحظة بل شخصا افتقدته و الله أعلم بصبرها على فراقه، كان إدوارد أمامها و لم تستطع الحراك حتى لسانها أبى الحديث لكن ساقوها قاداتها نحوه ففتح ذراعيه و ناداهما:



- تعالي يا صغيرتي اشتقت إليك كثيراً.

فما كان منها سوى أن انصاعت لمطلبه و ارتمت على صدره  
تلتبس وجوده فأجهشت بالبكاء تردد:  
- لقد.. لقد وعدتني ألا... ألا تتركني يا أخي لماذا؟.

فرفع رأسها الصغير نحوه و حدق بتلك العينين العسليتين الغارقتين  
في الدموع بسببه و قال:  
- لكنني لم أخلف بوعدك لك يا حبيبتي.. لقد عدت لأصطحبك معي  
إلى كندا ..

أطلقت إيما التي كانت تتابع هذا اللقاء خلف الشرفة صيحة قوية :  
- ماذا! .. إلى كندا؟!.

فرمقها إدورد بنظرات ساخرة و قال :  
- و هل ظننت أنني سأغادر بدونها يا رئيسة الخدم؟.

تلعثمت في قولها:  
- لللا... لكنني لا أظن السيد ألكسندر سيوافق على هذا...

- أنا الوصي الشرعي لها و ليس سيدك.

ثم أشاح بنظره صوب بيانكا:  
- ما رأيك؟ هل تريدين البقاء هنا أم مرافقتي؟.  
بيانكا كانت مترددة كثيراً فبعد أن لاقت أخاها هاهي الآن أمام  
فرصة لزيارة كندا و الأهم من ذلك أنها ستكون رفقة شقيقها طول  
الرحلة، لكن ما خطر ببالها وقتها ما تواجهه رفيقتها من مشاكل مع  
المدير فأجابت أخاها الذي كان يتلهف لمعرفة جوابها:

- أريد مرافقتك يا أخي لكن بياتريس ستواجه المدير اليوم و لا تملك المال الكافي لدفع مستحقات الدراسة و أنا أظن أنه ليس من العدل أن أتركها و أذهب إلى كندا.

تنهد إدورد ثم أردف :  
- و إذا دفعت مستحقاتها فهل ستسافرين معي؟.

نظرت بيانكا سافلا ثم قررت:  
- أجل سأذهب معك؟ .

هنا أطلق إدوارد إبتسامته المعروفة و قال:  
- حسناً إذن... سأدفع أنا المستحقات.

ثم نظر إلى إيما و طلب منها أن يمتثل أمام غرفته خادمه الخاص بعد برهة و استمر:  
- سأبعث بكشك فيه ما يلزم لدفع المستحقات و الباقي سأجعله في حساب صديقتك بياتريس.

لم تجد بيانكا ما تقول بعد ما قام به أخوها من أجل مرافقته " إنه حقاً لا يريد التخلي عني " هكذا همست في نفسها فصاحت :  
- أنا أحبك يا أخي اشتقت إليك كثيراً! كنت واثقة أنك سرّ حديث والداي يومها.

احتار إدوارد من كلامها فسألها مباشرة:  
- ماذا تقصدين يا بيانكا؟.

- في الحقيقة أدركت ما كان والدائي يتها مسان به في ذلك الحلم ، سألته والدتي ما إن استطاع إحضاره معه لكنه أجاب بالنفي.... فهل تعلم من كانا يقصدان؟.

- لا ...لا أدري .أجاب إدورد.

قامت بضمه وقالت:

- كانا يقصدانك بلا شك فقد سمعت اسمك لكنني لم أعره بالا كوني كنت صغيرة حينها و لا أجرؤ على مناقشة والدائي: « إدوارد من يكون يا ترى!... ربما صديق أبي اسمه إدوارد... ». لكنني أعترف... وقتها كنت غبية لعدم اكتراثي لهذا الاسم الذي صار صاحبه وصيا علي اليوم.

- لا زلت غبية إلى الآن فلو كنت ذكية لعثرت على رسائلي التي أرسلتها لك مع دورتي في اليومين الماضيين أخبرك فيها أنني سأعود قريباً.

رفعت بيانكا رأسها ترمقه بنظرات استفسار:  
- أية رسائل؟ .

- طلبت من دورتي أن تدعها فوق مكتبك حتى يسهل عليك إيجادها لكن هيهات! .  
- فوق مكتبي! .

هرعت إلى غرفتها و اتجهت صوب مكتبها.... كانت هناك رسالتين لكن بيانكا لم تقرأ و لا واحدة. الأولى كان فيها: « عزيزتي بيانكا أسف لمغادرتي المنزل دون توديعك أعذري أخاك لأنه مشغول الآن. اهتمي بنفسك. » .

و الثانية « مرحبا بيانكا اشتقت لك كثيراً لن أتأخر أعدك بالعودة قريباً.. أخوك الذي يحبك » .

فقال إدوارد بتعجب :  
- لا أكاد أصدق لا زالت كما أعطيتها لدورثي.

فنظرت إليه ببانكا مأنبة الضمير و استمر:  
- كيف لم تنتهي لوجودها في مكتبك؟.

شدت ثوبها بيديها الصغيرتين من شدة التوتر حتى قالت:  
- كيف لي أن أشاهدها و قد كنت في غرفتك طول فترة غيابك؟.

- و أين كنت تلعبين و قرئين و حتى تنامين؟.

- في غرفة أخي....

ضحك إدوارد من تصرف صغيرته الأحمق و قال:  
- لا بأس عليك يا أختي...!

بعدها بقليل جلس الجميع لتناول الغداء و كان قد عاد السيد ألكسندر  
منذ برهة لذا عندما وجد إدوارد لم يخفي تفاجؤه حتى صرح:  
- ظننتك قد هربت من المهمة...

- كنت سأفعل لو كانت ببانكا معي... أجاب بغضب.

بعد مرور فينة أردف إدورد:

- سأصطحب أختي معي إلى كندا...

لم يكن كلامه مفاجئاً بقدر ما كان مستحيلاً بالنسبة للسيد فقاطعته  
بنبرة خشنة :

- ستلتحق بمقاعد الدراسة بعد ثلاثة أسابيع هل فكرت في هذا؟.

نظر إدوارد إلى ببانكا مبتسماً والتي كانت تتابع بصمت ثم قال:

- لا تشغل بالك بإنجاز المهمة لا يتعدى أسبوعان.

- افعل ما تريد لكن لا تتصل بي إذا وقعت في مأزق هل تسمع؟.

- لا! لن أفعل و لو كنت على بعد خطوة واحدة من الموت.

صاحت بيانكا تشد كم قميصه :

- إدوارد!!!!!!....

- كنت أمزح فقط لا تقلقي.

بدأ الإثنان بجمع الأمتعة و قبيل المغادرة أطلقت إيما العنان لدموعها أن تنزل، فقد كانت تحب بيانكا ليس كسيدة وحبب عليها خدمتها بل كأم تخاف على ابنتها.. ربما كان غياب إدوارد ذا فائدة لهاتين الفتاتين.

انطلقت السيارة نحو المطار، و لم يكن بوسع بيانكا توديع رفيقاتها كون الطائرة ستقلع في الثانية تماما راجية ألا يؤثر سفرها على صداقتها بهن.

جلست بيانكا في المقعد الخلفي بجانب شقيقها كانت تبدو أقصر من خلاله لا تكاد تظهر للعين و هذا جعلها تفر بكونها لا تزال صغيرة.

صارت السيارة الآن أمام الوجهة، فركنها السائق ذو القبعة المنتصبه نحو الأعلى قائلا:  
- لقد وصلنا يا سيدي!.

- حسناً شكراً لك.... سنغادر الآن.

أخرج السائق الحقائب وناولها لإدوارد، ثم قام فأمسك بمعصم بيانكا و انطلقا نحو الطائرة.  
و في فسحة المطار التي امتلأت بالجموع الغفيرة من مختلف الأجناس فما كان إلا أن فغرت الصغيرة فاما من الدهشة حتى أردف إدوارد بصوته المرهف:  
- هل تشعرين بالسعادة يا صغيرتي؟.

فالتفتت إليه بيانكا بعدما استفاقت من دهشتها و قالت بحماس:  
- أجل! لا أصدق أنني سأذهب إلى كندا!!.

و بعد برهة مضت طراً على مسمعها نداء بإسمها لقد كانت بياتريس و الأخريات على السلم المتحرك فتوقفت مشدوهة البال هل حقاً ما أراه حقيقة؟ هكذا قالت في نفسها. فطلب منها إدوارد توديعهن لأنه أدري بما يختلج في صدر صغيرته الآن. فهمت إليهن تقبل و تضم الأخرى حتى أردفت بياتريس بصوت أجش :  
- بيانكا لا أدري كيف أرد صنيعك فقد أنقذتني!.

حملت فيها بيانكا ملياً ثم قالت بإبتسامة متزنة:  
- أخي إدوارد من أنقذك فهو من دفع المستحقات.... أخي!! تعال!.

كانت خطوات إدوارد المتناسقة و جثته الضخمة قد زاده هيبة فأردفت بياتريس بخجل:  
- نشكرك يا سيد إدوارد على مساعدتك لنا أتمنى أن تعتني ببيانكا جيداً خلال سفركما..

- لا شكر على واجب كوني مرتاحة البال لأنها معي أنا. و الآن علينا المغادرة يا بيانكا...

لم تستطع إنجي كبح حزنها الشديد غير أنها تمنّت لبيانكا سفراً آمناً وودعتها.  
لحظة إقلاع الطائرة صاحت:  
- لا تنسي مراسلتي يا صديقتي.... اهتمي بنفسك جيداً... وداعاً!!.

أما بيانكا فقد ظلت تحقق من النافذة بالمنازل التي صارت أصغر مما كانت تخاله.

بعد ساعات لاحظ إدوارد شروود بيانكا فسأل بقلق:  
- هل أنت بخير يا عزيزتي؟.

لم ترد مباشرة بل ظلت تحقق به إلى أن قالت:  
- أشعر بالنعاس يا أخي لكنني أخشى أن تسقط بنا الطائرة... إنها مخيفة!!.  
لم يكتف إدوارد الضحك بل أطلق العنان لنفسه ثم قال بنفس متقطع:  
- أنا محظوظ.. لأن.. لأن لدي أختاً مضحكة مثلك. ههه!.. حسناً.. لا تخافي بيانكا.  
ثم رفعها إلى حجره و أسند رأسها إلى صدره و أهداها قبلة خفيفة ثم استمر:  
- نامي الآن يا صغيرتي و لا تخشي شيئاً.. أنا معك و سأحميك دائماً..

انصاغت بعدها بيانكا للنوم حتى وصلت الطائرة إلى كندا .

توجه الشقيقان إلى منزل العم أليكس و هو أخ السيد ألكسندر ليس بالشقيق فاستقبلهما بحرارة، حتى إذا استقرت الحال أُرْدِف بعدما وضعت زوجته الخالة روث الشاي و الكعك:  
- يسعدني جدا وصولكما سالمين أظنك بيانكا ابنة جوليا أليس كذلك؟

تشبثت الصغيرة بسترّة إدورد ثم أشارت بـ "نعم".  
قال إدورد بنبرة قلق:  
- أتمنى أن لا نسبب الإزعاج لكما...

فتبادل الزوجان النظرات ثم قالت الخالة روث:  
- لا تقل ذلك يا بني فنحن عائلة .. الساعة الآن متأخرة. هيّا تعالّا! سأريكما غرفتيكما لابد وأنكما متعبين من السفر.

لم يكن منزل العم أليكس أقل شأنًا من منزل إدوارد فل كلاهما التصميم ذاته. كانت غرفة بيانكا بمحاذاة غرفة أخيها ما تركها مرتاحة البال.

عند منتصف الليل استيقظت بيانكا على حديث الخالة وزوجها فنزلت الدرج و توجهت صوب غرفة الجلوس، كانا هادئين يحتسيان القهوة حتى أُرْدِفَت الخالة :  
- أرجوا أن تعتاد الصغيرة على العيش معنا لأنني لاحظت خوفها منا يا عزيزي...

همست بيانكا في نفسها:  
- لم أكن خائفة بل كنت أخذ حذري منكما فقط...



لكن بعد هنيهة طرأ على مسامعها كلام جعلها ترتجف خوفاً فجرت خطواتها للعودة إلى غرفتها فوجدت باب حجرة إدوارد مشقوقاً ولم تمنع نفسها من إلقاء نظرة خاطفة عليه، كان يحمل بيده كتاباً و عيناه مغمضتان المصباح لا يزال منيراً فقادت ساقاها إليه و رفعت الكتاب من على يده كان عنوانه " الكوكب الأخير " فوضعت على الرف و زمّلته بالبطانية، كانت تريد إعلامه بما سمعت لكنها انعدلت عن ذلك وعندما همت بتقبيله رفع ذراعه نحو رأسها و فتح عينيه لم يكن واعياً لكنه سأل باستغراب:

- ماذا هناك يا بيانكا هل تشعرين بالخوف؟ .

تحجرت كلمات بيانكا من شدة التوتر إلى أن قالت:

- أخي.. هل السيد أليكس و زوجته شريران؟.

بدا إدوارد من سؤالها هذه المرة واعياً فأجاب بابتسامة خفيفة:

- لا أبداً... إنهما طيبان للغاية! ستكتشفين ذلك قريباً و الآن أريد النوم يا صغيرتي تصبحين على خير...

- أحلاماً سعيدة يا أخي..

عادت بيانكا إلى غرفتها و أمست تفكر في كلام العم و زوجته إلى أن خلدت إلى نوم عميق.

\*\*\*\*\*

شقيقتي بيانكا التي عثرت عليها صدفة صارت رعايتها مسؤوليتي كوني في زيارة عمل إلى كندا و نحن الآن نقيم مؤقتاً في منزل عمي السيد أليكس الذي لم يرزق بأبناء، لهذا فقد شعر بسعادة غامرة لدن علمه بقدمنا. أتمنى أن تعناد صغيرتي على العيش هنا ريثما أنهى عملي.

في صباح اليوم توجهت نحو غرفة المعيشة كانت المائدة المستديرة تصطف بأشهى الأطباق فألقيت التحية على عمي و زوجته و لاحظت بعد حين غياب بيانكا في جلستنا فقلت مستحماً عذرهما: - آسف سألقي نظرة على شقيقتي لا بد وأنها لا تزال غارقة في النوم.

فابتسما لي وأشار اب " حسناً ".  
صعدت الدرج نحو غرفة صغیرتي و طرقت الباب لكنها لم تجب فجعلني ذلك مضطراً لفتحه، بيانكا لا تزال نائمة فقممت بفتح الستائر حتى إذا أشرقت الغرفة بنور الشمس تقدمت بضع خطوات صوب السرير و كما أرى وجهها الملائكي فإن توتري بسبب العمل يتلاشى شيئاً فشيئاً، أيقظتها بعد ذلك و يا ليتني لم أفعل فقد انتفضت من على سريرها كأن شيئاً مرعباً يلاحقها فقممت بتهديتها لكنها انهالت عليّ تلکم صدري بضع ضربات بقبضتها الصغيرة، لم أتمالك نفسي حينها فانتشلتها من على السرير و ضميتها إليّ. يداها اللتان تشدان قميصي كانتا باردتين من شدة الخوف فأردفت مستغرباً :

- ما بالك يا صغیرتي خائفة هكذا هل حدث شيء؟.

صغیرتي اللطيفة لم تجب بل ظلت تردد :  
- لا تتركني... أنا خائفة.. لا تذهب بعيداً يا إدوارد!.

فرتبت خصلات شعرها الحريري و لاطفت خدما المتورد و قلت مطمئناً :

- لا داعي للخوف يا حلوتي سأبقى إلى جانبك دوماً هيّا ابتهجي!.

ربما كلماتي أدت مفعولها ولو قليلاً فمسكت يدها و قلت:  
- تعالي معي فالخالة روث قد حضرت أطباق شهية ستعجبك.

بيانكا مسحت ما تبقى من دموعها وأذعنت لرجائي قائلة:  
- أنا أفضل طعام إيما لكنني سأأذوق طعام الخالة لأنني لا أريد أن أموت جوعاً ..هه.

سماعي لضحكة صغيرتي أبهج قلبي فلم أرها تبتسم أو تضحك منذ وصولنا إلى هنا.

تناولت الفطور و ارتديت بدلي الرسمية التي تحبها بيانكا فقد صارحتني ذات مرة بقولها: «أحب ملايسك الرسمية يا أخي هل تعيرني إيها يوما ما؟» لا أخفي عليكم أنني بقيت حينها أضحك لوقت طويل في السيارة و نظرات والدي تحق بي و كأنني مجنون.

لكن اليوم مختلف كون صغيرتي أبت مغادرتي للمنزل و بقيت تتشبث بسترتي لولا أن الخالة أراحته عني و قالت:  
- بيانكا أخوك سيذهب للعمل و عليك انتظاره حتى يعود. اتفقنا؟!.

غير أن بيانكا أجهشت بالبكاء من كلام الخالة مازاد الطين بلة، فأنحنيت نحوها و قلت بصوت حنون:  
- بيانكا يا عزيزتي أنا مضطر للمغادرة الآن فلدي عمل مهم... انتظريني هنا رجاءً! .

صاحت بيانكا بغضب و أعادت التشبث بسترتي :  
- لقد وعدتني أن تبقى إلى جانبي... لماذا ستغادر الآن إذن؟.  
تذكرت حينها ما حدث صباحاً و كيف كانت أختي الصغيرة خائفة جداً ..لم أستطع إفلات يدها المتمسكة بي فانصاغ قلبي لها واستسلمت لأمر الواقع وقلت متنهدا:  
- حسناً... فتأتي معي إذن و لكن!.. إياك أن تبتعدي عني مهما حدث وكيفما كان الأمر.. هل هذا واضح؟.

نهرى لها بتلك القسوة لم يؤثر عليها أبداً بل رمقتني بنظرات النصر و ابتسامة عريضة ؛ إنها مأكرة حقاً.  
توجهت مباشرة صوب غرفتها و غيرت ملابسها بأقصى سرعة و امتثلت أمامي في أقل من عشر دقائق كانت قد ارتدت ثوبا أحمر و حذاء أرجواني و أسدلت شعرها للخلف لا أنكر جمالها و لطفها حينها، فاستأذنت من العم و زوجته بالإنصراف فقالت الخالة:  
- حسناً....رافتكما السلامة!.

وجدت السيارة بانتظاري كان بداخلها السيد دومنيت لم أره منذ مغادرته البلاد، اتصلت به البارحة و قد أعلمني بموقع المشروع الذي سيعقد اليوم ، تفاجأ عند رؤيته لشقيقتي و رمقتي بنظرات غريبة قائلاً :  
- الطفلة هنا معك .كيف؟.

- حكاية طويلة يا سيدي...

- آه أظن أن مكان العمل لا يليق بطفلة صغيرة مثلها.... لم يكن عليك اصطحابها معك يا سيد يوهان.

بيانكا كانت تكتم غيظها من كلامه و لو أني سمحت لها بالكلام لكانت استشاطت عليه غضباً. فقامت بتهدة الوضع قائلاً:  
- وجودها من عدمه لا يقدم ولا يأخر هذه مسؤوليتي أنا يا سيد دومنيت...

- حسناً... لكن أرجوا أن لا يؤثر بقاؤها على سيرورة العمل لا تسئ فهمي رجاءً!.

المعلوم أن السيد دومنيت لا يقبل أن يعيق مشروعه شيء خاصة الأطفال فهم مصدر للمشاكل على حد قوله.

وصلنا إلى الموقع، كان البناء ضخماً فنزلت و بيانكا واتجهنا نحو مكتب المدير، سألتني صغيرتي ونحن نتمشى :  
- ماهو الموقع يا إدوارد؟.

- إنه المكان الذي سنعقد فيه شراكتنا مع شركة السيد دومنيت...

أنت صغيرة على فهم مثل هذه الأمور لذلك راقبي فقط. كان مكتب المدير جورج براين في أحد أطراف المكان حيث لا يصل ضجيج الآلات إليه. فقام واستقبلنا بحرارة و لطف شقيقتي و يبدو أنه لم ينزعج من وجودها إطلاقاً. كان رجلاً في الثلاثين و أب لخمسـة أطفال و ما حققه لحد الساعة يعتبر إنجازاً عظيماً في عمر قياسي.

بأشرنا الحديث حول المشروع الجديد و هو إصلاح سكة حديدية بين المدينة الساحلية و الجامعة المركزية سيتطلب كل هذا على نحو أسبوعان على ما أعتقد. وضعنا التصميم جانباً و شرعنا في تنفيذه كانت الشاحنات تصطف الواحدة تلو الأخرى صغيرتي بيانكا كانت خائفة منها كثيراً ، فقد باتت تشد على يدي بقوة ترمقني بنظرات الخوف قائلة:

- إدوارد أنا خائفة لا تفلتني أرجوك!.

ابتسم المدير في وجهها و مسح على شعرها فحملتها على كتفي و تابعنا مراقبة سير العمل .

في المساء كنا قد رتبنا كل شيء و لم يتبقى سوى التطبيق العملي، صغيرتي اللطيفة نامت بعمق رغم الضوضاء و صخب الآلات ما جعلني أعتذر للجميع و أعود أدراجي إلى المنزل. في السيارة كنت أتأمل شوارع كندا المتألئة بالمصابيح لكن قلبي اشتاق لبلدي و أظن أن بيانكا تشاركني نفس الشعور لن أنسى ما حدث صبيحة اليوم أبدا.

عند عودتنا قامت الخالة بتحضير العشاء و أنا أخذت بيانكا إلى غرفتها لترتاح من ثم نزلت إلى غرفة المعيشة، بعد برهة عاد عمي من العمل، بدا لي مرهقاً جداً كيف لا و هو أحد أكبر رجال الأعمال في كندا، سألتني الخالة :  
- كيف كان نهارك في العمل؟ هل اعتادت بيانكا على الأجواء هنا ولو قليلاً؟.

كانت من نبرتها قلقة جداً فأجبت مطمئناً:  
- لا داعي للقلق فهذا يومنا الأول هنا أما بالنسبة للعمل فقد تقدمنا خطوة لتحقيق هدفنا.  
بعد العشاء جلسنا نتسامر حتى أقبلت إليّ شقيقتي ترتمي على صدري وقد تهاطلت الدموع كوابل على خدها ، عمي و زوجته كانا يحدقان بها باستغراب شديد فسألت صغيرتي :  
- ماذا حدث لك هذه المرة؟.

نظراتها إليّ و كأنها تستغيث طلباً للنجدة أيقظتني من غفلي، فأعدت سؤالها للمرة الثانية لكن بصوت أكثر خشونة :  
- حدثيني يا بيانكا... مما أنت خائفة هكذا؟

بيانكا لم تجب بل تركتني أتصارع مع نفسي فهذه ليست شقيقتي التي أعرفها . استأذنت من عمي و قدت شقيقتي إلى غرفتي و أوصدت الباب كانت لا تزال خائفة فدنوت منها بلطف و مسكت بكتلتا يديها كانت عيناى تواجهان عينيها العسليتين المتألئة بالدموع فسألتها بوضوح :

- ما الذي يخيفك يا حبيبتي هيا أجيبى ! أنا متعب جداً ولن يهدأ لي بال حتى أدرك ما يخيف صغيرتي ...

نظرت إلى بيانكا و قد زاد مجرى الدموع في عينيها فأجابت بصوت أجش و هي تمسك بقميصي:  
- أخي ! العم أليكس والخالة روث شريران.. صدقني يا إدوارد لقد سمعتهما ليلة أمس يتحدثان عني بغضب وازدراء .

فقامت و أخفت وجهها بصدري و استمرت:  
- إنهما حليفان للسيدة روز.. إنهما من أرسلها إلينا تلك المرة !.  
لم استوعب ما تلفظت به شقيقتي فما دخل روز بهذا كله؟ ما علاقتها بالأمر؟ . فداعبت شعرها و طلبت منها أن تروي ما جرى بالتحديد ليلة أمس و أجلستها على فخذي حتى أدركت الحديث:  
- خرجت من غرفتي و توجهت صوب الحمام لكنني سمعت العم وزوجته يتبادلان أطراف الحديث، كانا يمقتانني بشدة فقد قالت الخالة : « لم أعلم أن فتاة صغيرة كهذه يمكن أن تغير رأي ألكسندر بتلك السهولة لقد تخلى عن روز ببساطة هل تدرك معنى هذا يا عزيزي؟! » ثم أردف العم بغیظ: « أجل ! لقد خسرنا ثروة طائلة كانت كل أملاك أخي ستصير بين أيدينا لولا تلك اللعينة .... لا تقلقي سنتدبر أمرها عاجلاً فهي الآن بحوزتنا هه ! ».  
هذا ما سمعته يا إدوارد.

لم أصدق ما صرحت به شقيقتي حول عمي و زوجته لكن الحال التي آلت إليها جعلتني أدرك صحة كلامها فمن المستحيل أن تكذب عليّ، أدركت بعد ذلك السبب وراء مجيئها لغرفتي ليلة البارحة فأردفت بنبرة هادئة :

- آسف يا صغيرتي كوني رددتك خائبة عندما لجأت إلي وبالأمس، سامحيني فقد كنت متعباً للغاية.

فابتسمت لي وكم كانت فرحتي لدن رؤيتي لها كذلك فقلت ممزحاً:  
- أنت لم تتناولتي عشاءك يا حلوتي فما رأيك بطبق لذيق من صنع الخالة؟!..هه!..

- لااا... لا أريد! أخاف أن يكون مسموماً يا أخي..

صغيرتي اللطيفة نامت بعدما اشتريت لها الشطائر من محل قريب ولا أنكر ردة فعل الخالة كون الأطباق التي حضرتها أشهى من أي وجبة في مطعم فاخر، و بالتأكيد جعلت بيانكا ترافقني فثقتها بعمي قد زالت نهائياً ، كنت على دراية حينها بأنه سيتوجب عليّ أن أحجز في فندق عما قريب كي أضمن راحة أختي الوحيدة .

\*\*\*\*\*

\*\*\*\*\*

في الصباح ارتديت ملابس العمل واتجهت صوب غرفة بيانكا التي وجدتھا تغط في نوم عميق فانتشلتھا من السرير و حملتها مربيّاً على ظهرھا أحاول إيقاظھا ففتحت عينيھا وحملت فيّ ثم قالت:  
- صباح الخير يا إدوارد .. ثم أردفت:  
- لما أنت تحملني؟



فابتسمت مشيراً :  
- لو لم أحملك لما استيقظت يا حلوة... والآن فلنذهب لتناول  
الفطور.

اتسعت حدقتا عينيّ بيانكا فقالت بقلق:  
- سنتناول الفطور هنا يا أخي؟.

- لا! ... بل في المقهى .

فقاطعتني :  
- و الخالة؟.. ستشك في الأمر حتماً.

فأجبت ملاعباً إياها:  
- رأي الخالة لا يهم الآن! ما يهمني أن أراكِ تبترسمين دائماً يا  
صغيرتي.

و أثناء مغادرتنا صاحت الخالة:  
- إلى أين؟ أنتما لم تتناولوا الفطور حتى؟.

فأشحت بنظري نحو شقيقتي ثم أجبت:  
- أنا مستعجل جداً لذا سنتناول الفطور لاحقاً... وداعاً الآن يا خالة.

ثم قدت بيانكا إلى السيارة التي أعارني إياها السيد دومنيت ليلة  
البارحة و توجهت نحو أحد المقاهي التي بمحاذاة المزرعة  
الجنوبية، فأوقفت السيارة و دخلنا إليه و جلست بيانكا تقابلني لا  
أنكر أن المقعد كان عاليا فطلبت من النادلة أن تتدبر أمره فقامت  
وأحضرت وسادة ووضعتها فوقه و جلست أختي بارتياح شديد ثم  
تصفحنا القائمة و سألت صغيرتي :

- ماذا اخترت يا بيانكا؟.

نظرت إليّ ثم أجابتنني بحماس:  
- أريد كعكة الشوكولاتة هذه... هل أستطيع الحصول عليها؟.

فقلت : بالتأكيد يا حبيبتي اطلبي ما شئت...

تناولنا الفطور ثم انطلقنا نحو مكتب المدير، كان قد أعلمني السيد دومنيت من قبل بآخر المستجدات المتعلقة بسير العمل و قد أطلعني على رغبة المدير بإنهاء المشروع دون مشاكل، وفور وصولنا لمحت الجميع منهمكا في عمله و صخب الشاحنات جعلني أشعر بالحماس لإنهاء المشروع بسرعة فتركت صغيرتي برعاية المدير و ارتديت البزة الموحدة للعاملين فشاركتهم الحفر و كم كان العمل مرهقاً. بعد ساعتين أخذنا استراحة قصيرة فعدت إلى مكتب المدير. كانت بيانكا تطالع مجلة سياحية و عندما لمحتني ألقت بها جانباً و أسرعحت نحوي تضميني فخشيت أن مكروهاً أصابها فسألت ملحا:  
- هل حدث شيء في غيابي؟.

بيانكا التي ظننتها حزينة قابلتنني بابتسامة عريضة فقالت:  
- أخي! أنا أحب المدير كثيراً.

كلامها فاجأني و في الوقت ذاته جعلني أشعر بالارتياح فقلت :  
- وهل كنت فتاة مطيعة؟.

- طبعاً.

لبثت أمسح وجهي بالمنشفة أفكر حتى أردفت صغيرتي:  
- أخي؟ أنت جميل بهذه الملابس!.

هذه المخلوقة ستقودني للجنون فما إن أشعر بالضعف حتى ترمقني بكلام يجعلني أتخبط من الإحراج، فدخل المدير ورآني على هذه الحال فهمس ساخرًا :  
- يبدو أن الأخ الحبيب قد نال درسا قاسيًا أليس كذلك أيتها الماكرة الصغيرة؟!.

بعد برهة سألت السيد جورج:  
- أعذرني لكن هل أجد فندقًا قريبًا من هنا يا سيدي؟.

احترار من سؤالي ذاك فهو على دراية بإقامتي عند أقاربي لكنه أجاب دون لف ودوران :  
- حسنًا هناك واحدًا بالقرب من المركز التجاري في الشارع الخامس ستجد فيه راحتك أنا أضمن لك ذلك.

- شكرًا جزيلاً لك. أريد لشقيقتي أن ترتاح مدة إقامتنا هنا لأنني لم أعد أريد إطالة مكوثي لدى أقاربي. لذلك سأحجز في الفندق الذي نصحتني به.

صغيرتي اقتربت مني و جلست على فخذي فقالت بنبرة هادئة :  
- شكرًا لك يا أخي أنا أحبك!. شكرًا حقًا.

قمت بضمها و همست:  
- أعذر عما حصل معك يا عزيزتي لقد وثقت بعمي ثقة عمياء وهذا كان تهورا مني ..سامحيني.

قاطعت حديثي وقد مررت راحة يدها على خدي:  
- لكنني سأظل أحبك دائماً يا أخي!.

- شكراً لك يا بيانكا.... لن أسمح لأي شخص أن يجعلك حزينة مرة ثانية.

و مع الغروب اصطحبت صغيرتي إلى فندق " غولدن داي " الذي نصحني به المدير سلفاً فحجزت حجرة بسريرين، بيانكا كانت تحمق في المكان يميناً وشمالاً وعندما أخذنا بالمصعد نرتفع صاحت بيانكا "والاو" من دهشتها فقد كان مشهد المدينة ليلاً كسراج ينير البلد برمته.

وصلنا إلى الغرفة ذات العدد (405) لا أنكر أنها كانت فاخرة و لن يصدق أحد أن طفلة صغيرة في العاشرة رفقة شقيقها من يقيم فيها، فوضعت سترتي على الأريكة و بت أتأمل أين صرت أقيم فأزحت بنظري صوب صغيرتي والتي لم يختلف الأمر معها فقد أمست تنتقل من جناح لآخر تسأل بحماس مفرط:  
- أخي هل سنقيم هنا حقاً؟.

حملتها إليّ و لوحت بها عاليا وقلت:  
- أجل! سنقيم هنا بعيداً عن الأشرار ههه.

و في الحقيقة صار هنالك ما يشغل تفكيري ألا وهي ردة فعل عمي و زوجته فكيف سأبرر انتقالي المفاجئ هذا بل وكيف سأنقل متاعنا إلى هنا.. بالتأكيد سيتساءلان كثيراً. لم أشأ أن أفسد فرحة شقيقتي بمخاوفي لذلك طلبت منها انتظاري في الغرفة حتى أعود بحاجياتنا ، في البداية شعرت بالذعر لكن سرعان ما أذعنت لطلبي لما جاء على لساني:

- ستمنعك الخالة من المجيء معي لو رافقتني لذلك سأذهب بمفردي... اتفقنا؟ .

رحلت بعدها نحو منزل عمي بعد توصياتي لبيانكا بأن لا تفتح لأي كان إلى حين عودتي. فأقلعت بالسيارة آملا أن لا يصيب صغيرتي مكروهاً .

فور وصولي استقبلتني الخالة روث و قد لاحظت غياب أختي الصغيرة فاعتذرت منها عن تناول العشاء و أخبرتها بقراري، و بدا لي من ملامحها غضبا شديدا ممزوجا بعلامات الحيرة فقالت بغیظ: - كيف هذا؟ ألم تعجبك الإقامة في منزلنا يا إدوارد؟.

- الأمر ليس كذلك لكنني....

فأطبقت بشفتيها ثم بعد برهة انضم إلينا عمي أليكس و لدن علمه بالقصة انبعثت منه هو الآخر هالة شر ما تركني محتارا من ردة فعله فاستمحتهما بلمّ أمتعتي فأردف عمي بكلام جعلني أتدارك ذلك الموقف :

- لن أسمح لك بالمغادرة فألكسندر قد ائتمني عليكما طول إقامتكما في كندا.

استدريت إليه مجيبا: و نحن نرغب بالإقامة في الفندق يا عم ولا تنسى أنني الوصي على نفسي وعلى شقيقتي أيضا و انا لا أريد أن أثقل عليكم لذا أعذراني الآن سأحزم حقائبي و أغادر...

لم ألبث حتى سمعت صوت عمي وقد زاد من حدته :  
- إذن دع الطفلة معنا و غادر أنت إلى حيث تريد....

كلامه الأخير جعلني أستشيط غضبا و حتى لا أثير المتاعب  
أسرعت من خطواتي دون أن أجيب و جمعت أشياء أختي ثم  
غادرت بسرعة و أنا في السيارة لم يغب ببالي تصرف عمي  
وزوجته البغيظ فأدركت حينها ما أخبرتني به صغيرتي عنهما و  
أنني كنت مصيباً عندما صدقتها.

عدت أدراجي إلى الفندق و توجهت نحو الغرفة كان الباب مشقوقا  
فناديت على بيانكا مراراً وتكراراً لكنها لم تجب، قلبي ازداد خفقانه  
من شدة الخوف فرُحت أبحث عنها كالمجنون في الحمام و تحت  
السريـر و على الشرفة لكنني لم أجدها من ثم خرجت من الغرفة  
مسرعاً فلمحتها رفقة الخادمة وبيدها شطيرة فانهالت الدموع  
كمجرى النهر على خدي و دنوت من صغيرتي ألتمس وجودها  
فقمـت بضمها إلى صدري بقوة حتى أردفت بصعوبة:  
- أخي أنت... تؤلمني ...

فمسحت دموعي بيدها الصغيرة و قربت إليّ شطيرتها كي أتذوقها  
ولم أمنع نفسي من أخذ قسمة فأخبرتني المضيفة:  
- كانت الصغيرة جائعة لذلك أخذتها إلى غرفة الطعام... أتمنى أن لا  
أكون قد سببت لك القلق يا سيدي..

فهمست في نفسي:  
- كنت سأموت من شدة القلق أيتها الغبية...

بعد ذلك تناولنا الطعام و قضينا ليلة حافلة مع جماعة من الشبان  
الذين استمتعوا برفقة صغيرتي اللطيفة. بعد هنيهات شعرت أختي  
بالنعاس فحملتها إلى الغرفة ووضعتها على السرير.

في صباح اليوم التالي استيقظت بيانكا بعد نوم عميق فقد كانت الغرفة مريحة جداً، إدوارد لا يزال نائماً في السرير المجاور لها، فتقدمت خطوتان نحوه و أسندت رأسها على صدره تفكر في بياتريس و إيما و كل صديقاتها، باتت تحن للعودة إلى المنزل بالرغم أنه لم يمضي أسبوع على مكوثها وأخيها في كندا. فشعرت بكف تمسح شعرها الحريري المسدول فخطبها إدوارد:  
- ما بالك يا صغيرتي حزينة؟.

رفعت رأسها تواجهه :  
- أخي إشتقت للعودة إلى المنزل، أريد أن أتحدث إلى إيما....

قام معدلاً من جلسته و رفعها إليه قائلاً بابتسام:  
- إذا كنت تريدين التحدث إلى إيما فبإمكاني الإتصال بها....

غمرت السعادة قلب الصغيرة فقالت :  
- هاه! شكراً يا أخي ..أنا أحبك كثيراً أحبك.

- توقي سألحقتق... هيا!!..

فتناول هاتفه المحمول و اتصل برقم منزله و عندما سمعت بيانكا صوت إيما أخذت الهاتف من شقيقها و صاحت:  
- إيما هل تسمعيني؟.

- أجل... سيدتي اشتقت لك كثيراً المنزل ممل من دونك... إن الجدة تفتقدك كثيراً كيف حالك؟.  
شدت بيانكا على قميص نومها و همست بصوت أجش:

- أنا.. أنا بخير فالمدينة التي نحن فيها رائعة لكنها ليس أجمل من لندن فسهرت قليلاً كأنها تقول في نفسها: " لو تعلمين كم أشتاق للعودة وإلى ملاقة الجدة..".

فأخذ إدورد الهاتف متعمداً لإنهاء المكالمة حتى لا تشعر صغيرته بالكآبة فأردف قائلاً:

- سأدع مسؤولية المنزل تحت رعايتك لا تنسى ما كلفتك به فشركتنا ستفرض نفسها على العالم أنت تفهمين هذا جيداً... أتمنى أن تبلغني تحياتي لوالدي و جدتي.. حسناً إلى اللقاء. أقفل الخط!

ألقي نظرة خاطفة على بيانكا وكم كانت تقاسيم وجهها الحزينة تحرك قلبه فقام و قبلها ثم أردف بصوت حنون:

- لا تريني هذه الملامح يا حبيبتي فأنا أحبك ولا أريد أن أراك حزينة هكذا.... هيّا ابتهجي!.

من ثم تناول الشقيقان الفطور وارتدى إدوارد بزة العمل و كما كان يرتب شعره فقد قالت بيانكا:

- أخي هل سألقي هنا إلى حين عودتك؟.

فالتفت إليها وهو يعدل ياقته ثم قال:

- أجل.. هل أنت خائفة؟.

- قليلاً... لكن لا تقلق يا أخي سأنتظرك.

- شكراً صغيرتي. لن أتأخر عليك.. إذا احتجت شيئاً اطلبي المضيفة.



انطلق إدوارد نحو العمل وبقيت بيانكا في الفندق، باله لم يكن مرتاحاً خصوصاً بعد ردة فعل عمه وزوجته مساء أمس، فأصبح قلقاً من أن يقدم على أمر خطير. حتى وهو يشارك في إنجاز المشروع فكثيراً ما كان شارد الذهن ولم يخفى ذلك على السيد جورج كونه لاحظ غياب شقيقته بيانكا ذلك اليوم.

\*\*\*\*\*

مضى على خدمتي في منزل السيد ألكسندر ست سنوات....  
- تعالي يا إيما!!، لقد كسرت الخادمة الجديدة صحناً آخر...  
صاحت دورثي.

بدأت المشاكل مع الخادمت الجدد تتهاطل عليّ و قد كان إتصال سيدتي الصغيرة هذا الصباح قد جعلني أشعر بالسعادة الغامرة..  
اشتقت لها كثيراً.

عاد السيد من الشركة يتذمر وهو على هذه الحال منذ رحيل ابنه و الصغيرة بيانكا. وغالباً ما يبقى في مكتبه حتى منتصف الليل كون مسؤولية الشركة أصبحت على عاتقه.

المنزل صار مملاً بصفة لا تصدق، لولا الأصوات التي تصدرها من قرع الملاعق و الصحون و أحاديث الطباخين و الخدم و انتقاداتهم. و لا أخفي أن حال الجدة صارت متدهورة فهي تأبى ملازمة غرفتها و تصر على الخروج.

قمت بدعوة إنجي صديقة السيدة المقربة فرويت لها قصة السيد مع والدتها جوليا، كانت الحيرة تكسو ملامح وجهها.. صحيح أنها صغيرة على فهم مثل هاته الأمور لكنها ظلت مصغية لي حتى النهاية بل و سألتني عن السيد إدوارد فقالت:

- هل كان إدوارد يزور زوجة عمي سرا أعني دون علم والده؟.

سؤالها كان بديهيًا فلا يستطيع أي طفل العيش بعيداً عن والدته خصوصاً إن كانت على قيد الحياة فأجبت نافية:

- كلا!.. فالسيد منعه من الخروج من المنزل حتى وإن خرج فسيكون تحت حراسة خادمه الشخصي، لذا فإنه حرم من رؤية والدته أو مقابلتها.. كان ذلك قاسياً جداً عليه فتجدينه الآن يحاول أن لا يجعل السيدة الصغيرة تفتقد والدتها وأن يكون سنداً لها في هذه الحياة القاسية و المجتمع الذي لا يرحم.. لا يريد أن تشعر بالوحدة كما عانى منها هو في الماضي. أظنك تفهمين هذا كونك تعيشين الآن بعيداً عن والدتك.

- أجل فوالدتي تعمل خارجاً و والدي مشغول دائماً.. لكنني لا أشعر بالوحدة لأن بجانبني صديقات هن أخوات لي خاصة بيانكا فأنا أحبها كثيراً. أستاذنك بالإنصراف الآن يا إيمان.. إذا جدر من بيانكا أي جديد فأخبريني أرجوك.

- حسناً أعدك بذلك كوني مطمئنة!.

\*\*\*\*\*

استطاع إدوارد الإفلات من قبضتنا بعد مغادرته لمنزلنا و قد أبى أن يدع الصغيرة معنا ما جعل خطتنا في الإنتقام تفشل، لكننا لن نتركها وشأنها أبداً هذا ما قررته و زوجتي حتى تصير ثروة ألكسندر ملكاً لي. لذا فقد بحثت عن الفندق الذي يقيم فيه حتى وجدته و اقتحمت المكان بسهولة كوني أحد أثرياء المدينة فحجزت غرفة بجانب غرفة إدوارد و صارت جميع تحركاتهما مدروسة لكن ما فاجأني أنني وجدت الصغيرة لوحدها في الفندق فسألت نفسي: « ألم يصطحبها معه إلى العمل؟ هذه فرصة لا تعوض! ».

من ثم بدأت فكرة الإنتقام تسري في عروقي، باب الحجرة كان مفتوحاً فدخلت بهدوء مطلق. كانت اللعينة ترسم على منضدة مستديرة و الأقلام على الأرضية كادت أن توقع بي. كان برفقتي رجل استأجرته لتنفيذ خطتي فأمرته بالدخول و خرجت أنا و من خلفها دنا منها و وضع منديلا به مادة مخدرة على أنفها فسقطت مغشياً عليها فهمست:

- لقد انتهى أمرك يا صغيرتي.. أحلاماً سعيدة.. ههه!.

بعدها، كان إخراجها من الفندق أمراً صعباً للغاية فحملتها بين ذراعي و سرت بخطواتي نحو المخرج لم يبق القليل حتى قاطعتني إحدى العاملات :

- اعذرنى لكن أليست هذه شقيقة السيد إدوارد؟ إلى أين تأخذها؟.

تلعثمت كلماتي فأجبت :

- شقيقها في العمل الآن لذا طلب مني أن أصطحبها معي حتى لا تشعر بالوحدة فأنا أحد معارفها... والآن عليّ الذهاب لو سمحت.

- آحسناً... أمره غريب.

استطعت الخروج من الفندق و ها هي الفريسة تحت قبضتي أخيراً. أمرت مرافقي بحجزها ريثما أعود فأخذها بالسيارة دون تردد بعدما دفعت له المال. فصحت :

- تعال و انقذ صغيرتك أيها المسكين!!.

عدت أدراجي نحو المنزل فاستقبلتني زوجتي بقلق حتى سألت بعد نفاذ صبر:

- كيف الوضع؟.

مسكت بفنجان القهوة و أسندت رجلي فوق الأخرى و أجبت بنبرة ساخرة:

- هاه! الأمور تسير كما ينبغي يا عزيزتي... سنرى ما سيفعله الأخ لإنقاذ أخته ههه!.

\*\*\*\*\*

انتهيت من العمل قرابة غروب الشمس فارتديت ملابسى و غادرت الموقع. لا أنكر أن العمل كان شاقا جدا، و ما يحيرني كلام المدير لي:  
- ماذا حدث؟ لما لم ترافقك شقيقتك؟.

- آ في الحقيقة تركتها في الفندق فمكان العمل لم يعد يليق بفتاة صغيرة .

- لكن! ألا تخشى أن يصيبها مكروه فقد سبق و أطلعتني على نوايا عمك و خطته.

كلامه ذاك جعلني أدرك تهوري فلو رافقتني لكنت بأمان و لو لم أكن لأقلق هكذا. أه يا صغيرتي إنتظريني...أنا قادم حالا!.

عدت إلى الفندق و صعدت إلى الغرفة، و عندما هممت بإدارة القفل اكتشفت أنه مفتوح فسألت نفسي:  
- هل نسيته مفتوحا يا ترى؟.

دخلت و وضعت حقيبتني و سترتي على المقعد، سكون المكان جعلني أشعر بالريب، فتوجهت نحو غرفة المعيشة كانت أقلام صغيرتي مبعثرة على السجاد فالتقطتها واحدة واحدة و ناديت حلوتي الصغيرة لكنها لم تجب، سرت القشعريرة في جسدي فرحت أبحث دون توقف لعل ما كان يخطر ببالي وقتها وهم و ليس حقيقة في النهاية... صغيرتي اختفت!.

خارت قواي بعد ما ألم بي، فجلست ممسكا رأسي بكلتا يداي أفكر و أفكر .. ماذا سأفعل؟ أين يمكن أن تكون؟. فراودتي فكرة لعل أحدهم قد لمحها عند خروجها فانتفضت مسرعا نحو مكتب الإستعلامات... و فور سؤالي عن شقيقتي جاءتني احدى العاملات هناك فقالت :  
- رأيت رجلان ضخما الجثة يحملان شقيقتك بدت لي هيئة أحدهم كأنه يعمل بإحدى الشركات..

فقلت بنفاد صبر:  
- إنه عمي بلا شك.. ألم يفصح عن وجهتهما أرجوك أخبريني؟.

- في الحقيقة قال أنك من أرسلتهما لاصطحاب الصغيرة حتى لا تشعر بالوحدة و أردف أنه أحد معارفكم يا سيدي أما عن وجهتهما فلم يفصح... آسفة!.

يا إلهي أين يمكن أن تكون؟. خرجت بعدها بالسيارة صوب منزل عمي أقود بأقصى سرعة ممكنة حتى اصطدمت بعمود الإنارة و لم أدري ما حدث بعدها كنت أهذي بلا شك، سمعت هاتفي يرن بقوة فرفعت نفسي و قد غطت الدماء وجهي و مسكت بالهاتف ، إنه المدير فقلت بنفس متقطع:  
- مرحباً... آسف لا أستطيع التحدث الآن.

فقط اعني:

- أعلم ذلك! أنت في طريقك إلى منزل عمك أليس كذلك؟.

عدت لرشدي توأ فسألت باستغراب:

- وكيف لك أن تعرف؟.

- لا يهم الآن... لا تذهب إلى عمك فهو ليس في المنزل.

- كيف عرفت هذا أيضا؟.. سألت.

- كنت هناك قبل قليل و أخبرت زوجه أني صديق لك و أرغب بمقابلتك، فأطلعتني على خروجك ليلة أمس. و اعترفت بعملية الإختطاف التي خطط لها عمك إنها تتاجيك أن تنقذ الصغيرة. أعلم أن شقيقتك مخطوفة و أود أن أساعدك .

بعد كل ما قاله لي السيد جورج وددت لو أبكي بحرقة فأنا أشعر بالغربة منذ مجيئي إلى كندا و بحاجة إلى صديق يؤنسني و يشد أزرني فأردفت:

- حضرة المدير.. أرغب أن تساعدني من فضلك!.

مسحت ما كان بوجهي من دماء و انطلقت بعدها نحو مكتب الشرطة و أطلعتهم بتفاصيل القضية، فأرسلوا دوريات مكثفة و ربطوا قلبي بأمل لقاء صغیرتي مرة أخرى.

استقلت سيارتي و كان المدير قد لحق بي فجلس بجانبی و انطلقنا نجوب أحياء المدينة بحثا عن طرف خيط يقودنا للعثور على بيانكا. و بعد ساعة من البحث الطويل استسلمنا! فخاطبت المدير قائلاً :

- يجب عليك العودة للمنزل الآن فلقد تأخر الوقت.. ستقلق عليك زوجتك وأطفالك.

فأشار بلا ثم أردف:

- لن يرتاح لي بال حتى نجد الصغيرة، كانت لدي شقيقة لطيفة كشقيقتك، كنت أحبها كما تحب أنت بيانكا لكنني فقدتها.

قادني فضولي لسؤاله :

- و كيف ذلك؟.

فنظر إلي مليا حتى أردفت:

- أنا آسف.. انسى ما قلته..

فتابع و قد كان بريق عينيه يخفي ألما شديداً :

- طالبني أحد اللصوص بفدية مقابل إعادة أختي لي لأنني مدير لأكبر الشركات في كندا، لكنني تأخرت في إيصال الفدية فقتلها كان ذلك لأنني أخطأت في العنوان الذي اتفقنا عليه للمقابلة، فخسرت أغلى ما أملك.. والداي توفيا و لم يتبقى لي سوى شقيقة وحيدة فأبت البقاء معي و لحقت بهما. لذلك أدرك شعورك يا إدوارد و لن أدع أي مكروه يصيب شقيقتك. أما عن زوجتي فقد أعلمتها بأمر تأخري هذه الليلة .

- لا أدري كيف أشكرك يا سيدي.

أثناء حديثي مع المدير رن هاتفي و قد كان الرقم مجهولا فأجبت:  
- من المتصل؟.

- ههه! أرى أن صوتك لا يزال يصدح كما بالأمس.. كيف حالك؟.

لم تخفى علي تلك النبرة، إنه عمي فأجبته مزجرا:

- أين أخذت شقيقتي أيها الحقير؟ هيا تكلم!

- لا تقلق إنها بأمان لحد الساعة لكنها لن تكون كذلك بعد منتصف الليل. اسمع! ستتنازل عن جميع الشركات التي يديرها والدك في إنجلترا و تجعلها تحت إدارتي أنا !!! و بعدما تحضر إلي الوثائق سأطلق سراح شقيقتك. ستجد العنوان تحت أحد المقاعد في الحديقة العامة و تذكر! إذا أعلمت الشرطة فتأكد من أنك لن تراها مجدداً.. ههه!.

شعرت بضيق في صدري و أنا أسمع أن شقيقتي تحت رحمة ذلك الحقيق، رأيت المدير يحملق فيّ فسألته :  
- ماذا سأفعل الآن؟ إذا لم أنفذ ما طلبه مني سيقتل... سيقتل صغيرتي.. لا! لا أريد أن أخسرها أرجوكم فلينقذها أحدكم.. ساموت!.

فأعادني لرشدي كلام السيد جورج:  
- لا يزال الوقت مبكراً على الاستسلام يا رجل! بقيت ساعتان على منتصف الليل يمكننا أن نجدها فلنعثر على العنوان أولاً هيا!.

توجهنا نحو الحديقة العامة و لم نترك مقعداً إلا وبحثنا سافله حتى وجدنا ورقة ملصقة على ظهر أحدهم، المكان ليس بعيداً عنا سنقطع بعض الأميال و أظن أن وجهتنا ستكون عند الميناء.. انتظريني يا صغيرتي سأنقذك!.

قادت السيارة بالسرعة القصوى و لم تغننا زخات المطر الهائل فوق واجهة المركبة عن الاستسلام و قرابة النصف ساعة وصلنا إلى الميناء . الظلام حالك و لا تسمع سوى تلاطم الأمواج، قمت بركن السيارة في زاوية إحدى المستودعات و خرجت مع المدير نرقب أي اتصال من عمي و بالفعل رن الهاتف فأجبت:  
- أين شقيقتي؟ تحدث بسرعة!.



- اخرس! هل نفذت ما طلبته منك؟.

- أجل!

- تعال الى المستودع على يمين الرصيف في نهاية الطريق.

و أقفل الخط!... فقلت:

- لنغادر أيها المدير فليس لدينا وقت بقيت خمس دقائق على منتصف الليل.

اقتحمنا المسودع و سرنا بخطوات متأنية و حذرة، فصعدت السلالم و أزيز الخشب يتردد على المكان حتى صرت أمام الباب... أدت القفل و دخلت، شقيقتي كانت واقفة تحت تقييد أحد الرجال التابعين لعمي فنادتني تستغيث طلبا النجدة مني قائلة:  
- أخي! ...إدور أدفني! لا تتركني هنا! ...

شعرت بالوهن يسري في جسدي لكن سرعان ما تحول إلى غيظ فزمرجت في وجه الرجل الذي يقيد أختي ممسكا بعنقه ضرب الحائط:  
- أين عمي الآن؟ .

- هل اشتقت إليّ يا بنيّ؟.

أشحت بنظري نحو الرجل الواقف أمامي و لو كان بيدي لقتلته فورا و قلت:  
- نعم! اشتقت لكم أحدهم فقبضتي لم تشوه وجهها منذ زمن....

- أين الأوراق؟.

- إنها مع صديقي في الأسفل سأسلمها لك فور إطلاقك لسراح أختي.

فقاطعني الحقير بنبرة ساخرة ماداً يده نحو جيبه:

- لا هكذا نسوي الأمر.. سأؤكد من الوثائق أولاً ثم تأخذ شقيقتك و ترحل.

لم أملك خياراً آخر فاتصلت بالمدير و طلبت منه الصعود فامتلأ أماننا و سلمت الأوراق للحقير. كان يتصفحها بدقة عالية حتى أمر تابعه بفك قيود صغیرتي و أنا أراها تركض نحوي تضميني بكل قوتها فرفعتها إليّ أقبلها تارة و تارة أخرى أضمها إلى صدري، كانت قد أطلقت شهقة هزت أوتار قلبي.. لم أشأ أن أفلتها مرة أخرى فبقينا على تلك الحال لدقائق حتى قاطعنا عمي بنبرة خسنة:  
- لحظة واحدة!.

كان يوجه مسدسه نحونا فأردف:  
- الوثائق؟.. مزورة!.

- ما الذي تقوله؟.. هل تحاول أن تختلق عذراً آخر حتى تأخذ شقيقتي بعيداً عني مرة أخرى!.

- سأقتلكما معاً و أخلص منكما كما فعلت بالغبية روز سلفاً...

صعقت من عبارته الأخيرة و رحمت أستوعب ما قاله:

- كما فعلت بروز سلفاً!.... هل تقصد أنك قتلتها؟!

- طبعاً!.. تخلصت منها بعدما فشلت في اقناع ألكسندر بتحويل أملاكه تحت إسمي... لقد عادت بعد خروجها من منزلك إلى هنا فقتلتها مباشرة و الآن حان دوركما!.

- توقف!!.. ارمي سلاحك بعيداً! .. سنسمع اعترافك في مكتب التحقيق.

نظرت خلفي فوجدت عناصر الشرطة قد اقتحموا المكان ، حاول عمي الفرار لكنه وقع تحت قبضة الشرطة و ساقوه وتابعه نحو السيارة فخاطبني المفتش :  
- أرجوا أن ترافقنا إلى مكتب الشرطة حتى تدلي بشهادتك.

- حسناً يا سيدي.

ألقيت نظرة خاطفة على صغيرتي التي بقيت متشبثة بي فكانت لا تزال تبكي لكن بصمت حتى قلت للسيد جورج:  
- أنت من أعلم الشرطة بمكاننا صحيح؟.

فقام بحك رأسه مراوفا ثم أجاب:  
- كان لابد من ذلك فأنت قدمت أوراقا مزورة وكنت ستقع في ورطة لو لم يصلوا في اللحظة الأخيرة.. أليس هذا درامياً؟.

- يا لك من رجل!.

بعد خروجنا من محضر الشرطة، تولى المدير القيادة و جلست بجانبه كون صغيرتي أبت إفلاتي من شدة خوفها حتى غفت من الإعياء أثناء عودتنا، لكن كثيراً ما كانت تنتفض فزعة فأحاول تهدئتها . المرة الأخيرة التي استفاقت فيها همست في أذني قائلة:

- أخي؟ أنا جائعة!...

ما جعلني أسألها في حيرة:

- ألم يقدم لك أولئك الأوغاد و لو وجبة خفيفة يا عزيزتي؟.

- لا... لم أتناول شيئاً منذ الفطور.

مسحت على ظفيرتها و قبلتها قائلاً:  
- عندما نصل إلى الفندق سأدعك تأكلين ما تشتهين يا صغيرتي..  
اصبري قليلاً فقط.

حملق في المدير ملياً ثم خاطبني ساخراً :  
- إنها في العاشرة و ليست في الخامسة يا صاح!.

فقلت متجاهلاً:  
- ستظل صغيرتي حتى و لو صارت في العشرين.

نظرت إلى بيانكا و أردفت:  
- أليس كذلك؟.  
حلوتي اختبأت خلف سترتي بعدما احمرت وجنتاها خجلاً حتى  
صحت:  
- لا! لا داعي لكل هذا الخجل.. كنت أمزح لا أكثر .

رمقتني بيانكا بنظرات حزينة فشدت على معصمي قائلة:  
- هذا يعني أنك ستتخلي عني عندما أكبر؟...

قلت مماًزحاً:  
- ستبقين معي دائماً، حتى و لو كنت عجوزاً مسنة سأظل أدلك  
أيتها الغالية.

وصلنا إلى الفندق و عاد المدير إلى منزله، فطلبت من النادلة إحضار ما اختارته صغيرتي من طعام فأكلت كل شيء تقريبا و بقينا نتسامر مع السيدة دوغلاس الشريفة، كانت حلتها تثير الضحك من قبل أختي فهي مبالغة في انتقاء ما ترتدي . و بعد برهة عدنا إلى غرفتنا، فأخذت حماما ساخنا بينما شقيقتي ذهبت للنوم و فور انتهائي اتصلت بوالدي و أطلعتة بما جرى، و الغريب أنه كان على دراية بمخطط أليكس منذ مدة، و أن مكوثي عنده ما هو إلا عملية مدبرة من قبل والدي حتى يجد دليلا على أعماله الشنيعة ... صرخت به معاتبا:

- كان عليك إخباري بذلك، لقد جعلت حياة الصغيرة على المحك.. ماذا لو أصابها مكروه؟.

- لم يكن عليك القلق... فقد عينت حرسا لمراقبة تحركات أليكس سلفا و كانوا سينفذون الطفلة لو لم تفلح في إنقاذها.... هه.. لا أنكر أنني استمتعت كثيرا!!... بالمناسبة .. ما الذي تفعله الآن؟.

- إنها نائمة يا أبي... و لا أظن أن هذه الحادثة ستنتقضي على ما يرام..

- أنت شديد القلق حيال ما جرى عليك أن تأخذ قسطاً من الراحة. أتمنى أن العمل يسير كما هو متفق عليه!

- كل شيء على ما يرام.. سننتهي قريباً.. اعذرني الآن.. سأصل بك لاحقاً. وداعاً!.

في تمام الساعة الخامسة صباحاً سمعت نداء بيانكا لي، الوقت لا يزال مبكرا على استيقاظي فأدركت من ملامحها أنها خائفة ... رفعت نفسي بصعوبة متثابرا و قلت:  
- ماذا جرى يا بيانكا أنا متعب!..

حملت في صغیرتي برجا قائلة:  
- أنا خائفة جدا يا إدوارد..

- حسناً سأبقى إلى جانبك ، نامي الآن!.

لم تحرك الطفلة التي أمامي ساكنا، كانت تود قول شيء لي على  
ما أظن فطلبت منها التحدث، لمحتها نُقَمَد أطراف قميصها فنطقت  
بصوت باكي:  
- أريد النوم بجانبك... أنا خائفة!.

استوقفتني دمة بريئة على خد حلوتي فقربتني إليّ أضمتها مربتا  
عليها وقلت :  
- أنا موافق... بشرط أن تتوقفي عن البكاء حالا. هيا!.

نامت صغیرتي بين أحضاني بأمان.... حتى رن جرس المنبه، لم  
أرغب بالنهوض حتى لا أوقظ أختي التي لم تعرف طعما للنوم  
بسبب ما جرى بالأمس. لكنني فعلت فقد حان موعد العمل.. لم أنم  
جيذا هذه الأيام فالمصائب تأتي من حيث لا أدري هكذا مرت  
الأيام في كندا.

\*\*\*\*\*

\*\*\*\*\*

\*\*\*

\*\*\*\*\*

انقضت فترة العمل، المشروع الذي أثقل كاهلنا قوبل بالنجاح فتبادلنا جميعاً التهاني و أقام المدير مأدبة عشاء في منزله.

في مساء يوم الإثنين..

اصطحبت صغيرتي معي إلى منزل السيد جورج الذي دعانا لمأدبة العشاء التي أقامها لتهنئة العاملين، صغيرتي ارتدت كنزة صوفية مع تنورة ليلكية كانت لطيفة بحق فرغم أنها في العاشرة إلا أنها لا تبدو كذلك أبداً، لذا فغالبا ما تكون ملابسها طفولية كنت قد صفت شعرها بنفسى، بالنسبة لي فلم أستعني عن بدلتى الرسمية الحماحمية و إنما أضفت وشاحا فحمي اللون طوقت به عنقي .

وصلنا إلى المنزل كان الجميع قد وصل السيد دومنيت و مهندس البناء إيريك واتسون حتى أن أشهر نجوم السينما قد عمروا أرجاء القاعة.. دخلت رفقة بيانكا إلى القاعة الداخلية ناحية السيد جورج الذي كان محاطاً بالمشاهير حتى إذا لمحني قادما استمح عذرهم و قدم إلي قائلاً:

- ظننتك لن تأتي يا سيد إدوارد لقد تأخرت كثيراً..

- أعذرني فالزحام الشديد ما عطلني عن القدوم باكراً.. أرى أنك دعوت المشاهير أيضاً...

- في الحقيقة إن زوجتي من قامت بدعوتهم بحجة أن لا يوجد ما هو أفضل من لقائهم على حد قولها.. ههه!.. الصغيرة اليوم جميلة جداً. أتمنى أن تقضوا وقتاً ممتعاً.

- شكراً لك يا حضرة المدير!.. بيانكا سأحدث إلى السيد دومنيت انتظريني هنا. هل هذا واضح؟.  
حملت في أختي ثم أجابتنى :

- حاضر..... أيمكنني تناول الحلوى التي هناك ؟.
- بالطبع!.. لكن لا تتبعتدي كثيراً سأعود قريباً.
- قابلت السيد دومنيت و شكرته على وقوفه إلى جانبي طول مكوثي في كندا قائلاً:  
- لا أدري كيف أشكرك يا صديقي...
- لا تشكرني فضل والدك علينا كثير.. المهم أن المشروع قد نجح!.
- انضم إلينا السيد إيريك قائلاً:  
- مرحبا بالسيددين الجليلين ..سرني لقاءكما في هذا الحفل.. فأنا لا أطيق حديث النجوم. هووه.. مع من أتيتما؟.
- أجاب السيد دومنيت:  
- حضرت مع صديق لي.
- وأنت يا إدورد؟. سألني إيريك.
- في الحقيقة أتيت برفقة شقيقتي الصغرى.. فقاطعتني :  
- حالنا متشابهة فأخوأي التوأمان رجائني بأن أصطحبهما معي... و يبدو أنهما يخططان لإثارة المتاعب فلا أثر لهما. هاه..
- هكذا هم الأطفال يا صديقي... و أرى أن شقيقتي قد اختفت أيضاً.  
أفكر في أن نبحث عنهم ما رأيك؟.
- معك حق.. أخشى أن يتسببوا في مشكلة.. اعذرنا يا سيد دومنيت سنعود لاحقاً.



\*\*\*\*\*

ظلت بيانكا تنتظر إدوارد على مقربة منه حتى انشغلت بأصناف الحلوى المصطفة على الطاولة، كانت لا تتذوق قطعة حتى تجذب ناظرها قطعة أخرى من صنف مختلف، و هي على هذه الحال اصطدمت بفتى كان يسرق الحلوى و يخفيها في جيبه، بدا من نظرتها الأولى أنه في مثل عمرها شعر أشقر و ملابس أنيقة لكن بيانكا راودها إحساس بمدى غروره، فعادت بخطواتها إلى الوراء و شعرت بكف تلمس كتفها، عندما ألقت نظرة كان نفس الفتى خلفها فقالت في نفسها: " ربما أتوهم..." . لكن الفتى الذي أمامها هو نفسه الواقف خلفها. أغضبت بيانكا عينيها حتى سمعت صوتا يكلمها:  
- أنا ريكي... و هذا شقيقي التوأم ميكي. ما إسمك يا صغيرة؟.

فتحت بيانكا عيناها اليسرى فرأت ميكي ثم اليمنى فلمحت ريكي أو عكس ما ظنت فقال ريكي:  
- هل ترافقيننا؟ سنقوم بمغامرة لا تنسى!.

- حسناً أنا بيانكا... قالت بحماس.

انطلق الصغار يجوبون أنواء القاعة الخارجية، فلمح ميكي السيدة جيرالد و بيدها كأس عصير و هي امرأة بدينة زوجة أحد أكبر رجال الأعمال فدنا منها و قال:  
- سيدتي لقد سرقت محفظة نقودك!.

صاحت المرأة :

- ماذا! أين السارق؟ هيا تكلم!!.

- إنه هناك! و أشار إلى أحد الرجال برفقة المدير.

أقبلت المرأة إليه ترمقه بكلام مشين :  
- أيها السارق أعد إلي محفظة نقودي.. هيا وإلا استدعيت الشرطة!.

نظر إليها الرجل و قال بنفاذ صبر:  
- أنت تهذين! ما الذي سأفعله بمحفظة نقودك يا امرأة.

فقاطع المدير تلك المشادة :  
- سيدتي! أنت واثقة من أن أحداً سرق محفظتك؟.

- أجل.. و أدخلت يدها في حقيبتها فصاحت:  
- هاه! محفظة نقودي هنا! آسفة حقا يا سيدي لقد أخبرني ذلك الفتى  
أن..... لقد اختفى!.

صاحت بيانكا في وجه ميكي:  
- لماذا فعلت ذلك؟.

- فقاطعها ريكي:  
- أليس ذلك ممتعاً؟.. نحن لم ننتهي بعد تعالى.

- إلى أين سنذهب؟.

تابع الشقيقان جرّ بيانكا حتى وصلوا إلى طاولة المشروبات، مسك  
ميكي القنينة و صب العصير في الكأس الذي بيد ريكي و قدماه  
للسيد جيلبرت المدير التنفيذي فشربه بعدما شكرهما فقام ريكي  
وأخرج صرصورا من جيبه فصرخت بيانكا وقال للسيد:  
- لقد شربت يا سيدي عصير الصراصير ههه!.

حملق فيه الرجل غير مستوعب ثم صاح:  
- غير معقول! أريد الماء... الماء!.

فقاطعه ميكي:  
- عذراً يا سيدي.. كنا نمزح معك فقط.. هيهيه!.

قطب السيد جيلبرت حاجبيه و قال بعصية:  
- أيها الأشقياء كيف تجرؤون؟ هل أنت أيضاً معهما؟ سأريكما!.

صاح إيريك الذي وصل مع إدوارد قبل برهة:  
- توقف يا سيدي.. أرجوك! لن يكرراها ثانية أعدك.

- عليك بمعاقبتهما أيها السيد فهما مزعجين.. أو غاد هؤلاء الصغار!.

دنا إدوارد من بيانكا التي كانت ترتجف خوفاً فحملها و قال:  
- ماذا حدث يا صغيرتي؟ أجيبني!.

طوقت بيانكا عنقه قائلة بصوت أجش:  
- أنا.. أنا لم أفعل شيئاً يا إدوارد، صدقتي.

التفت إيريك صوب ريكي يصيح:  
- ما الذي فعلتماه لها أجيبا!!..  
- لم نفعل لها شيئاً أليس كذلك يا ميكي؟.  
- هذا صحيح! أريناها صرصوراً فقط هذا كل ما في الأمر..

نظر إيريك نحو إدوارد تعلو محياه تقاسيم الإحراج فقال:  
- أعتذر إليكما بالنيابة عن شقيقي.. سأحرص على معاقبتكما لاحقاً.

فسأله إدوارد: ألهذا السبب كنت قلقا عندما اختفيا؟.. لا ألوئك..

حملق في بيانكا ثم قال معاتبا:

- طلبت منك الإنتظار في القاعة الداخلية فلماذا عصيت أوامري يا عزيزتي؟.

- قاما بجري معهما!.. لن أكررها.

\*\*\*\*\*

قام الأخوان ريكي و ميكي بإخافة بيانكا التي لم أصدق أن وجدت فرصة لجعلها تشعر بالسعادة في هذه الحفلة، فاصطحبتها إلى الحديقة الجانبية للمنزل لتهديتها و جلست على مقعد بالقرب من النافورة و بين أضلعي كانت تتشبث بي صغيرتي، فبقيت صامتا طيلة الوقت حتى خاطبتني:  
- لا تغضب مني !.

حملقت مستغرباً ثم قلت:

- لست غاضبا أبداً..

- إذن لماذا أنت متجهم الوجه هكذا؟

- هل أبدو لك كذلك ؟.

فحبست دمعة كانت ستنزّل على خدها و أجابت:

- أجل. أنت كذلك.

بيانكا الوحيدة القادرة على فهم مشاعري فقد كنت حينئذ أفكر في إجراءات محاكمة عمي و شعرت بالشفة على الخالة روث.

مسحت ما تبقى من دموع حلوتي و قلت مصطنعا المرح:  
- لا ينبغي أن يحزن الصغار في مثل هاته الحفلات، لنمض ما تبقى  
لنا من وقت في فرح هيا بنا بيانكا!.

رغم أنني استطعت قلب ذلك الجو الكئيب إلى فرصة للمرح، إلا أن  
ابتسامة صغيرتي في تلك اللحظة هي أغلى ما نلته في حياتي .

نحن الآن على متن الطائرة و في طريقنا إلى إنجلترا، صغيرتي  
تغط بنوم عميق فهي لم تتم البارحة منذ علمها بخبر عودتنا إلى  
الوطن. مررنا بأوقات عصيبة لكننا تخطيناها بمحبتنا.. لقد اشتقت  
إلى كل من في المنزل كثيراً.

في المطار...  
استقبلتنا إيمان و دورثي، كان لقاءهما و بيانكا مؤثرا و حاراً أكاد  
أجزم أنني أشعر بالغيرة منهما. عدنا إلى المنزل و كم كانت فرحتي  
عندما دخلت غرفتي فلا يوجد ما يريحني من سريري الناعم، بعد  
برهة طلبني والدي في مكتبه، كنت أعلم ما يجول بخاطره فهذا  
بديهي المشروع قد نجح و ستكون أخبار شركتنا على  
واجهة الصحف. كان لقائي بوالدي عابرا حيث باشرنا الحديث حول  
ما أنجزناه خلال الأسبوعين الماضيين و ما دار بيني وبين أليكس و  
لو صرحت بما ينتاب قلبي من غيظ لدن ذكري لاسم ذلك الحقيير  
لاندلعت حرب عالمية ثالثة.

عادت المياه إلى مجاريها، فبيانكا صارت أكثر نشاطا وحيوية منذ عودتنا و هذا جعلني أطمئن على حالها كثيراً. هكذا قضينا هذا اليوم الذي أبى أن ينتهي إذ أن إيما و جميع الخدم باتوا ينصتون لمغامراتنا أنا وشقيقتي في كندا فقالت دورثي بأسف:  
- آه! كم أنت محظوظة يا سيدتي... كندا! ليتني أزورها و لو في الأحلام .....

في صباح اليوم التالي قررت أن آخذ صغيرتي لزيارة عمها و صديقاتها، لا أخفي عليكم حماسها عند سماعها لاقتراحي فتناولنا الغداء و استعدت بيانكا لمرافقتي و أفلنا سائق سيارتي نحو المنزل. و نحن في السيارة قلت لصغيرتي متحسرا:  
- أسفة يا عزيزتي لأنني اقترحت عليك مرافقتي إلى كندا.. أعلم أنك مررت بفترة قاسية لكنني لم أشأ الابتعاد عنك!.

بيانكا التي كانت تحقق بالطريق من النافذة التفتت إلي و كأن شيئاً ما لفت انتباهها فأجابتنني بحدة:  
- أخي.. أكرهك عندما تصير أحمقاً!.. في بعض الأحيان أشعر أنك غبي... لا تحدثني بالتفاهات رجاءً.  
لم أصدق ما طرأ على مسامعي حينها... صغيرتي اللطيفة صارت الآن مخيفة جداً أو ربما أن مراهمتها مبكرة.

وصلنا إلى المنزل و لقاء الصديقات ببيانكا لم يختلف عن لقائها برئيسة الخدم و دورتي، في المعيشة لم تكد تخلُ الغرفة من عبارات الإشتياق أما الصغيرة إنجي فقد ظلت تعانق صغيرتي كلما أعاد ذكر رجوعنا من كندا. الأنسة بياتريس قامت بتحضير كعكة الشوكولا المفضلة لدى حبيبتي و التي تذكرني باليوم الذي عرفت فيه أن بيانكا أختي الصغرى، مرت ثلاث أعوام بالفعل. احتفلنا جميعا و تبادلنا أطراف الحديث كانت جلسة ممتعة بحق، خصوصا عندما تكشف إنجي أسرار الفتيات من مشاجرات و تحديات بينهن و كسل والدها المتواصل الذي صار يلکهما على رأسها من تصریحاتها.... إنهن بسيطات و ربما هذا ما جعل بيانكا قوية في كل مرة تعترضها المصائب.....

بينما نحن جلوس خاطبتني الأنسة بياتريس قائلة:  
- سيد إدوارد.. هل تسمح لبيانكا أن تقضي هذه الليلة معنا؟.

ترددت من سؤالها لي، فأنا لا أَرْضِي أن تكون صغيرتي في منزل آخر بعيدا عن ناظريّ . بقيت صامتاً أفكر و ألقى بنظراتي صوب بيانكا، كان وجه الأنسة المتوسل المنتظر الإجابة مني يثير توتري فتتهدت ثم أجبتها:  
- في الحقيقة.. أنا لا أعترض!.

و أشحت بناظراي نحو عيني بيانكا مردفا:  
- لكن.. أنا!.

صغيرتي دنت مني ببضع خطوات ثم قالت بمرح:  
- كنت أود البقاء.. لكنني وعدت أخي بمرافقته إلى الملعب.. آسفة يا بياتريس!  
- أوه هكذا إذن حسناً! لا بأس.. نحن سعداء أنك عدت إلينا سالمة.

- شكراً جزيلاً لك.. سأزورك مرة أخرى، علينا المغادرة الآن  
أليس كذلك يا أخي؟.

- نعم!.. لنذهب.

سبق و أن أخبرتك أن صغيرتي الوحيدة القادرة على فهم ما يجول  
بخطري إنها صديقتي المقربة. شكرت الأنسات على حسن  
ضيافتهن و استقلنا السيارة.. بعدما تخطينا الحي حملقت في بيانكا  
مستفسرا:  
- لم فعلت ذلك؟.

بيانكا اصطنعت الغباء و تظاهرت بأنها لم تفهم قصدي فأعدت  
السؤال بصيغة مباشرة :  
- لماذا رفضت دعوتها؟.

رمقنتي الصغيرة بنظرات المكر والدهاء قائلة:  
- أولم تكن ترفض ذلك في نفسك؟.

قلت و قد غلبني التوتر:  
- آ حسناً!.. و ماذا بشأن الملعب؟!!.

- انس الأمر.. فقد كان مجرد تضليلا لا أكثر..

- و ماذا عن محل الألعاب ذاك؟ ألا يهكم أيضاً؟.

التفتت إلي صغيرتي بوجه متحمس قائلة:  
- خذني إليه أرجووك!!.



يسهل على المرء إقناع الأطفال فقط اغويهم بالألعاب و سينصاغون لك!. صارت هذه حيلتي في التعامل معهم.  
دخلنا المحل و كم كانت ألوانه الزاهية تجذب أعين شقيقتي الصغيرة، طُفنا حول المكان هنا وهناك، و كانت بيانكا تعجب بأبطال المسلسلات الكرتونية و لا تقفأ حتى تغير رأيها فسألتها مداعباً رأسها:  
- اختاري ما يعجبك يا صغيرتي و لا تترددي.. هيا!.

ربما ما قلته قد أثلج صدرها، فراحت تجوب الأقسام الأخرى بسعادة.. و بقيت أنا أتفحص بعض الألعاب فوجدت دمية البطل غرانديزر، إنها تذكرني بطفولتي، كنت أحب هذا الكرتون كثيراً بل و أقلده في حركاته أيضاً. تابعت المشي بخطوات بطيئة حتى أتنني الصغيرة تقودني إلى الطرف الآخر من القسم الذي كنت فيه، فشدت طرف ثوبها و سألتني مترددة:  
- أخي! أخبرتني أنك ستشتري لي ما أريد صحيح؟.

عندما يقول الأطفال مثل ذلك الكلام فاعلم أن وراءهم مصيبة..  
أجبت الصغيرة بصوت واضح:  
- أجل!.. أخبريني فقط عما تريدين و سأشتريه لك!.

- حتى و إن كان ما أريد باهض الثمن يا أخي؟.

سألت نفسي: « ما الذي أثار إعجابها هكذا يا ترى؟ عساه خيراً....».  
فقلت :  
- لا تأبهي للسعر سأندبر أمري.. و الآن ماذا ترغبين يا حلوة؟.

مسكت بيانكا معصمي و جرتني إلى منضدة بها أصناف مختلفة من الألعاب فقالت لي :  
- أريد هذه الدمية يا أخي! أرجوك إشتريها لي! .

ما أثار إعجاب شقيقتي دمية فائقة الجمال فستان منفوش زهري و  
شعر أسود ليلي لا أنكر أن ذوقها فريد و السعر.. أخخ يا ربي! إنها  
باهضة الثمن حقاً لكن! هذا لم يكن ليهمني مقابل أن أرى صغيرتي  
سعيدة، فهي من اختارتها بنفسها وهذا شيء جعلني لا أتردد في  
شرائها لها فقلت برضا تام:

- إنها لك يا عزيزتي.. سأشتريها لك و إن كانت ستجعلني مفلساً  
لسنوات.. ههه!.

مسكتها بيانكا بين ذراعيها غير مصدقة حتى فغرت فاها من السعادة  
و ضمتني بقوة قائلة:  
- يا إلهي إدوارد! شكرا لك. سأسميها جودي!.

قلت مماًزحاً :  
- أتمنى أن لا تتعلقني بها لحد الجنون و تدعين أخاك وحيداً.. يجب  
أن تعدلي بيننا.. هه!.

عدنا إلى المنزل و الدمية بين أحضان صغيرتي، و في غرفتها بقيت  
سأهرا بجانب سريرها حتى خلدت إلى النوم ممسكة راحة يدي  
تهمس : تصبحان على خير إدوارد! جودي!.

\*\*\*\*\*

\*\*\*\*\*

\*\*\*\*\*

\*\*\*\*\*

\*\*\*\*\*

اتصل بي اليوم السيد دومنيت و طلبني لموافاته في الشركة، كان ذلك على الساعة السابعة و خمس دقائق. فارتديت بدلة نيلية و أسدلت شعري من باب التغيير، لا أدري وقتها ولكنني تذكرت أن صغيرتي لم تبقى في المنزل لوحدها منذ عودتنا من كندا فخرجت صوب غرفتها و لمحت إيما أمام الباب فسألتها:  
- ألا زالت الصغيرة نائمة؟.

- أجل سيدي.. بإمكانني أن أوقظها إن أردت.

فقاطعتها :

- لا أبداً! أخبريها عندما تستيقظ أنني سأذهب إلى الشركة و لن أتأخر.  
- حسناً! في الحال سيدي.

لم ألبث واقفاً حتى فتح الباب، كانت بيانكا كالصنم بين ثناياها جودي ترمقني بنظرات الفرع.. فوجهت كلامي لرئيسة الخدم:  
- ألم أطلب منك عدم إيقاظها لتوديعي!.

- لكن يا سيدي هي من انتفضت من السرير عندما سمعت صوتك!.

دنوت منها و مسحت على شعرها المظفر، حتى شعرت بقبضتها تشد قميصي فخاطبتني بنبرة باردة :  
- أخي لا ترحل!.

لم يخطر ببالي أن صغيرتي تشعر بالخطر حتى و هي بالمنزل، كنت أظنها قد نسيت الأمر تماماً، حملت الصغيرة إلي فكانت تلف ساعديها حول عنقي بكل قوة و قد أدركت أن حجمها قد زاد، لقد كبرت بالفعل .. لم يسعني سوى أن قبلتها و قلت متتهدا:

- حبيبتي.. ستكون بقربك إيماناً و جدتي لن تكوني وحيدة و لا تنسي صديقتك الجديدة جودي أليس كذلك؟.

- لكنني لا أريد جودي! أريدك أنت يا أخي!!.. صاحت بيانكا.

التقطت يديها الصغيرتين و قلت برجاء:  
- أختي.. صغيرتي! انتظريني هنا رجاءً!.

اقتربت إيماناً و حاولت تسوية الوضع قائلة:  
- سيدتي الصغيرة، سأبقى معك إلى حين عودة السيد إدوارد و لا داعي للخوف سأحميك!.

نأثت عني قليلاً و ضمت يدها إلى جودي فحملت فيّ قائلة:  
- إلى اللقاء.. إدوارد.

ثم قبلتني و أردفت بصوت أجش:  
- أنا أحبك يا أخي!.

- و أنا أحبك كثيراً يا صغيرتي!!.. لن أتأخر أعدك بهذا.

رفعت نفسي و قلت مخاطباً إيماناً:  
- اعتني بها جيداً لحين عودتي. سأغادر الآن!..

- رافقتك السلامة يا سيدي!.

\*\*\*\*\*

غادر إدوارد وبقيت بيانكا في المنزل، فعادت إلى غرفتها وترتمي على السرير و بين فينة و أخرى تلقي بنظرة خاطفة على الشرفة فنقول في نفسها: "ربما سيدخل العم أليكس من هنا.. عليّ أن أغلق النافذة!".

أضحت ترتجف خوفاً، فجلست القرفصاء و أمامها كانت جودي الدمية التي اشتراها لها إدوارد. فتمكّنت تخفي دموعها الصامتة و نادت على إيما.

- ماذا هنالك سيدتي الصغيرة؟!

- إيما؟.. هلا بقيت بقربي.. أرجوك!

لبثت مليا ثم قالت:

- و العمل يا سيدتي؟ سيغضب السيد ألكسندر كثيراً!.

- إذن! إسمحي لي بمرافقتك..

- لا مانع عندي.. تعالي! سنقوم بمغامرة لا مثيل لها في تنظيف الغرف..

- أريد تنظيف غرفة أخي!.

- حسناً إذن! سادع أمرها لك..

شعرت بيانكا بالسعادة لتنظيف غرفته، و ما أثار فضولها أنها ستكتشفها بروية و دون توتر.. كانت تلمع النوافذ و ترتب الملابس و تمسح الغبار من على المكتب التي وجدت عليه الصورة التي التقطها السيد دومنيت لهما قبل رحيلهما من كندا. كان درجه مشقوقا فسألت نفسها: «ماذا يوجد هنا يا ترى؟ هذا مثير هه! ».

فتحتة بيانكا و كان به سجلات المعاملات المالية فصاحت:  
- يا للملل !!!.

قراءة موعد الغداء عاد إدوارد و كم كانت فرحة الصغيرة بلقائه  
كبيرة فسألها بود:  
- هل بكيت في غيابي يا صغيرتي؟.

- طبعاً لا فأنا في العاشرة الآن.. كنت قوية يا أخي!.

- ههه أشك في هذا و الآن لنتناول الغداء فأنا جائع جداً!.

كان كرسي بيانكا مقابلاً لحيثما يجلس إدوارد و كثيراً ما كانت  
تختلس النظر إليه و تبتسم.  
بعد الغداء توجه إدوارد إلى الصالة و جلس يحتسي الشاي بمحاذاة  
الحديقة، كان يداعب بين يديه رسالة مزينة بطريقة لطيفة فجعل  
بيانكا تتساءل عن صاحبها:  
- أخي هل هذه الرسالة لك؟؟.

- أجل إنها من ابنة عمي الصغيرة...

امتعض وجه بيانكا و ضاق صدرها بغرابة لما لمحت تعابير رقيقة  
على محيا إدوارد و هو يطالعها، كانت غاضبة لدرجة أنها  
استحوذت عليها و مزقتها إلى قطع صغيرة تكتم دموعاً كادت أن  
تنزل، ظل إدوارد مطرقاً بعينه يتابع قطع الرسالة المبعثرة أمامه  
من جهة، و من جهة أخرى يُدين تصرف بيانكا الغير مسؤول..  
صاح مزجراً:

- ما الذي فعلته يا بيانكا؟؟.

- مزقتها، إنها رسالة غبية على كل حال !!.

ثم لم تلبث حتى شعرت بصفعته على خدها، نظرت إليه ملياً غير مصدقة و أجهشت باكيةً فغمغم بفتور:

- لست أنت من يقرر إن كانت غبية أم لا !!... هذا تصرف أناني منك يا بيانكا، لقد صرت في العاشرة كما قلت وقريباً ستتدخلين الإعدادية، فكفاك أفعالاً طفولية ... هيا اعتذري !.  
صاحت بيانكا في حلق:  
- لن أعتذر، هل هي أهم مني؟؟؟.

- إنها ابنة عمي يا بيانكا، بقدر ما أنت مهمة بالنسبة لي الأمر ذاته ينطبق عليها...

- لا، مستحيل..

ثم ركضت نحو السلالم تصيح:  
- أنت أحمق، أنا أكرهك يا إدوارد.

كان الأمر قاسياً عليه أن يسمع كلاماً كذاك من صغيرته المدللة، ارفأف فوق المقعد يحرق في الفراغ يفكر في مدى قد صارت شقيقته أنانية و يلوم نفسه على ذلك...

مضت أيام و بيانكا و إدوارد متخاصمان، كانت تنزل لتناول الطعام ثم تعود لغرفتها، تعجب إدوارد من عنادها المزعج و في قرارته اشتاق إلى ضمها كما اعتاد. أما عن ألكسندر فقد كان يتابع معركتهما من بعيد متسلماً بذلك ...

ذات صبيحة قررت بيانكا مغادرة المنزل . لا إيما ولا دورثي ولا الجدة علم بخروجها. كانت قد حزمت ما التقطته أناملها من ملابس و غادرت غرفتها و لم تنس توديع إدوارد، فقد ألقت نظرة خاطفة عليه هامسة بصوت أجش:  
-وداعاً أخي! آسفة لأنني أغضبتك.. سامحني!.

وتابعت خطواتها نحو الباب كانت إيما لا تزال تغط في نوم عميق فالساعة تشير إلى الرابعة صباحاً. لاذت الصغيرة بالفرار و توجهت نحو منزل عمها.  
عندما طرقت الباب فتحت أوديت و هذا غريب جداً لكن الغريب هو أن بيانكا أمام الباب في ساعة مبكرة جداً فصاحت بها:  
- هاه! بيانكا! أنت مجنونة؟... ما الذي تفعلينه هنا في هذا الوقت؟.

- حكاية طويلة.. أيمكنني الدخول أم لا؟.

- تفضلي!.. يا بنات بيانكا في المنزل!.

تجمعت الرفيقات حول المائدة يستفسرن عن سبب مغادرة بيانكا للمنزل فخاطبتها بياتريس قائلة:  
- ماذا جرى حتى رحلت هكذا هل طردك السيد الكبير؟.

- لا أبداً! أنا من قررت الرحيل..  
تنهدت ثم أردفت: .. لقد خاصمت إدوارد....

صاحت بياتريس :

- ماااااا؟؟؟؟، و هل هذا سبب للرحيل يا بيانكا ! لا تنهوي سيقلق عليك كثيراً، ألسن تحبينه كثيراً؟.



- بلى، و لذلك لا أستطيع البقاء هناك، لقد أغضبته كثيراً و لا أحتمل رؤيته كذلك، لذا سأذهب إلى جدتي ...  
أردفت أليس:

- و ماذا عن المدرسة؟ لم يبق سوى يومان!.

قاطعتها إنجي تتوسل:

- إبقى هنا معنا يا بيانكا أرجوك!.

- آسفة! لكنني أريد الابتعاد عن لندن..و سأطلب من جدتي نقلي إلى إعدادية القرية. و الآن علي الرحيل لكن أرغب أن يرافقني عم آدم فالفقر في هذا الوقت مخيف!.

- حسناً.. لا بأس..سأوقظه!.

رحلت بيانكا عن لندن نحو سكوتلاند أين تقطن جدتها المحبوبة، كان آدم متعجباً من مراس هذه المزعجة و صبر إدوارد عليها لكنه لم يبد ذلك لها، لم تكن الطريق طويلة بقدر ما كان الوصول إلى القرية سريعاً. ودعته بيانكا بحرارة و تابعت مسيرها و بيدها الحقيبة صوب منزل الجدة. الأشجار الشامخة التي تركتها لدن تقصيدها لمكان شقيقها هاهي الآن ترحب بها من جديد. لمحت الجدة من بعيد فركضت نحوها كالطائر الجريح.

\*\*\*\*\*

مضى أسبوع على مخلصمتي لصغيرتي.. صدقوني لم أشعر بطعم الراحة منذ ذلك الوقت و أنا أرى طفلي كئيبة لا تستسغ الطعام المقدم لها.

استيقظت هذا اليوم كالعادة فغيرت ملابسني، و قمت نحو غرفة الطعام و وجدت والدي و بجانبه رئيسة الخدم فجلست على مقعدي أنتظر وجبتي، لكنني أدركت حينها غياب شقيقتي فخاطبت إيما:  
- أيقظي شقيقتي لو سمحت فأنا أريد أن أحدثها بأمر..

- حاضر سيدي!.

بقيت أتبادل أطراف الحديث مع والدي حول إدارة الشركة و مخططاتي الجديدة حتى لمحت رئيسة الخدم تصيح:  
- سيدي!! الصغيرة ليست في غرفتها و لا في أي مكان.. لقد اختفت!  
- ماذا!!!! لا يمكن أن تكون.....!

أدركت حينها أن بيانكا غادرت المنزل، شعرت بأن أمراً ما آل بصغيرتي قال لي والدي :  
- ربما تكون قد خرجت للعب مع صديقاتها!.

- أبي ليس من عادتها الخروج في هذا الوقت بدون علمي.. لقد رحلت من المنزل! مهلاً لحظة! ربما ذهبت إلى منزل عمها. أبي سأغادر الآن ! حلّ محلي في الشركة .

ركبت السيارة و طلبت من السائق الإستعجال، كان ذلك المنزل هو أُملي الوحيد في العثور على صغيرتي. في مثل تلك الساعة يكون الزحام شديداً فبقيت أنتظر وقتاً زاد فيه قلقي على أختي الصغيرة. وصلت إلى المنزل...طرقت الباب ففتحت الصغيرة إنجي نظراتها إلي أوحى لي أن قدومي إليهن كان متوقعا فقلت:  
- هل بيانكا هنا يا آنسة؟.

عندما أنادي هذه الصغيرة بالآنسة ألمح ابتسامة صغيرة على وجهها فأجابتنني بياتريس التي خرجت تواء:  
- بيانكا ليست هنا؟ أدخل!.

- آسف! لكنني مستعجل.

- قلت أدخل.

لبثت في غرفة المعيشة أنتظر، حتى أتنني الآنسة بياتريس و جلست تقابلني.. قالت لي:  
- جاءتنا بيانكا هذا الصباح لتوديعنا.

صحت غير مصدق:  
- ماذا؟ و أين هي الآن؟!!.

- اهْدأ رجاءً!.. لقد أخبرتنا أنكما تشاجرتما فذهبت إلى جدتها في سكزتلاند قبل ساعات.

- محال، هذا ليس سببا يستدعي مغادرتها، تلك الشقية..

- مممم، تبدو مرهقاً يا سيد إدوارد.

غمغمت مستسلماً:

- لقد تراكمت مهام الشركة علي هذه الأيام لذا نادراً ما يخلد لي جفن..

تدخل آدم ينظر إلي بأساً و قال ناهراً:  
- سأؤكد من توبيخ بيانكا عندما تعود.

قلت غاضباً:

- سأسبقك إلى ذلك... سأذهب إليها الآن !!!..

قاطعتني أوديت مستنكرة:

- لكنك لا تبدو على ما يرام، لن تتحمل مشقة السفر..

سيوصلني سائقي الخاص، و سأحاول النوم داخل السيارة، أشكركما على مساعدتي، و أنا أعتذر على إزعاجكما، يبدو أنني بالغت في تدليل بيانكا كثيراً..

- لقد كانت مدللة منذ ولادتها فلا تلم نفسك كثيراً، ثم إنها ستعترف بخطئها عاجلاً، نتمنى لك رحلة موفقة يا سيدي. أرسل آدم متنهداً.

عندما هممت بالمغادرة استوقفتني إنجي متسائلة:

- لم نعلم حتى الآن لم تشاجرتما، هل الأمر مهم؟.

زجرت بياتريس مؤنبة:

- إنجي !!! هذا لا يعيننا.

- لقد وصلتني رسالة من ابنة عمي التي في خارج البلاد و بيانكا مزقتها من الغيرة، كنت قادراً على تجاوز ذلك لكنها أبت الاعتذار بعناد و هذا أغضبني بشدة..

- حقاً بيانكا فعلت ذلك؟، هذا متوقع منها... هل يمكنني مرافقتك؟.

- بالطبع، هذا يسرني تعالي، أستاذنكن الآن، وداعاً.

كانت إنجي مشدوهة من كبر السيارة تخرج رأسها الصغير من النافذة و تصيح، أما أنا فوجدتها فرصة لأخذ راحة قصيرة... كنا قد وصلنا عندما أيقظني صياح إنجي تلك، ترجلنا من السيارة نحو طريق مرتفع يقود إلى سهل مرتفع حيث المنزل. كنت أسمع همس القرويين و رؤية الناس لهيأتي المرتبة و ملابسها الفاخرة جعلني أخرج كثيرا، و وددت لو أقطع لسان إنجي التي ظلت تسخر مني طول الطريق.

وصلنا إلى القرية. الناس فيها بسطاء للغاية، و على مقربة من الجبل كان منزل الجدة يطل من السهل الأخضر. طرقتنا الباب فاستقبلتنا بحرارة. كانت المائدة تحمل ما لذ و طاب من فطائر ذات لمسة طبيعية. فسألته مباشرة عن شقيقتي فقالت:

- حفيدتي في سفح الجبل الآن تلهو مع أصحابها القدامى.. و قد اقترب موعد عودتها لذا تناولوا هذه الفطائر ريثما ترجع هيا هيا!.

بقينا نتسامر مع الجدة التي روت لنا ماضيها و عن زوجها القبطان المتوفى في الحرب. أما إنجي فباتت تهرب من الكلب بيرنار الصديق الوفي للجدة منذ سنين و كانت فرصة لي كي أنتقم منها عما جرى في الطريق حتى دخلت صغيرتي من الباب الخلفي قائلة:

- لقد عدت يا جدتي! أنا جائعة!..

مر وقت طويل لم أسمع فيه صوت عزيزتي فقممت من الأريكة و فتحت الباب فلمحت بيانكا أمامي كطفلة صغيرة، كانت ملابسها مغطاة بالوحل و أشعة شمس الغروب تلمع عينيها العسليتين و بيدها زهرة فسقطت منها غير مدركة، و ظلت تحرق بي أنا في ذهول .. فابتدأت الحديث:

- كيف حالك صغيرتي؟.

بيانكا طأطأت برأسها و لم تجب فأردفت:

- تبدين سعيدة هنا كثيراً! أكثر مما أجذك عليه في منزلنا!.

وقعت عيني على دمعة تجري في خدّ صغيرتي المتورد من كثرة اللعب تتبعها دمعتان ثم ثلاث فأردفت :  
- هل تبكين حبيبتي؟ آسف.

فأجابتنني بغصة:  
- أنا لا أبكي!.

انحنيت لمستواها فمسحت على خدها و قلت:  
- تعلمين أنني لا أحتمل رؤية دموعك.

فقالت لي بصوت أجش و هي تضغط على معصم يدي المبسوطة على خدها :  
- اشتقت إليك كثيراً! أنا آسفة.. سامحني!.

ضميت الطفلة إلى صدري أربّت عليها غير مصدق أنها بين أحضاني وقتئذ، فقبلتها و قلت متنهداً بعمق:  
- عزيزتي! أختي! عندما تفعلين شيء خطأ فلتعتذري لا أن تهربي كالجناء، هل تدركين أن ما فعلته خطأ؟.

أومأت صغيرتي مستسلمة فهمست مماًزحاً:  
- لا يزال أثر صفعتي على خدك فلتضربيني يا صغيرتي.

رفعت بيانكا رأسها تواجهني حتى فغرت فاها مستنكرة و صاحت:  
- بالتأكيد لا إدوارد ! أنا لا أجزؤ.  
دخلت بصغيرتي إلى الصالة فصاحت إنجي:  
- بيانكا! اشتقت إليك.

أقامت الجدة حفلة متواضعة من أجلنا كان وقتاً رائعاً!.. بعد هنيهة، عرضت إنجي على صغيرتي التي بين أحضان اللعب خارجاً لكنني صحت في وجهها:  
- لن أسمح بأن تبتعد عني مرة أخرى! ستلعب معك لاحقاً.

فانفجرتا ضاحكتين من ردة فعلي و لم أعلم أنه مقلب من تلك الشقية حتى تثير غيظي إلا بعد فوات الأوان.

ودعنا الجدة و ركبنا السيارة نحو لندن، كانت صغيرتي تحتضنني بقوة إلى أن أوصلنا إنجي إلى المنزل فخرجت بياتريس تنهر بيانكا بقسوة حتى جعلتها تحتمي خلفي و أنهت حديثها قائلة:  
- لقد أتعبت شقيقك كثيراً بالرغم من أنه متعب بسبب عمله فقد ذهب لاسترجاعك، فكري في تصرفاتك المتهورة و لا تعاندي فأنت الملامة في النهاية...

- أنا أعلم ذلك، لقد اعتذرت..

عدنا إلى المنزل و كم كانت فرحة إيمان و الجميع بعودة صغيرتي عارمة ، تشاركنا عشاءاً ضخماً شاركنا فيه والدي و الجدة. و بعد العشاء ذهبت إلى غرفتي لأداء صلاة العشاء أشكر الله أنه لم يأخذ صغيرتي بعيداً.

في تلك الليلة أتتني صغيرتي إلى غرفتي تطلب مني أن أسرد لها حكايتي فبقينا معاً حتى منتصف الليل ثم خطر ببالي سؤال:  
- صغيرتي هل أعلمك الصلاة؟...

نظرت إلي بعيون بريئة مستفهمة فما كان مني إلا أن دخلت في شرح عميق لم تسمع الصغيرة إلا القليل منه فقد شرعت في النوم و يا ليتكم تعلمون كم اشتقت لرؤية وجهها الملائكي. وددت لو أبقيتها بين أحضانني إلى الصباح.

تلك كانت ذكرياتي الحلوة مع شقيقتي التي ساقها القدر إلي لتنتشلني من وحدتي و تشدّ على يديّ كلما واجهتني رياح قلبي العاتية.... بعد ذلك أوصى بها والدي لدى مدير مؤسسة داخلية خاصة بالفتيات تتلقى فيها تعليمًا إعداديًا و ثانويًا، فاضطرتّ لتمضية معظم الوقت بعيدة عني و صرت لا ألقاها إلا بضع مرات في الأسبوع.... حتى أتى ذلك اليوم الذي تخرجت فيه.....

يتبع ...